

ليلى عسيران

الحوار الأخرس

رواية



الحوار الأخرس

ليلى عسيران



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت . لبنان

ص . ب. ٨٣٧٥

هاتف: ٣٥٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٧٢١ـ ٣٥٠٧٢٢ـ ٣٤٤٢٣٦ـ ٣٤٥٤٦٠

تلكس ـ ٢٢٦٦١

فاكس ـ ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

بناية الوهاد . شارع جان دارك . بيروت

الطبعة الاولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الاهداء :

إلى أمين

١

أنا لست الرجل الذي يعرفه الآخرون.

أنا لست الرجل المعروف والمحامي الشهير. وتلك الصورة التي أراها في مخيلة الناس، إنها ليست صورتي، ولا أنا بذاك الرجل اللاهث وراء المشاغل المتشبث بكل انواع التحدي.

أنا لست الرجل الذي يتولى أدق المهمات ويعالج أهم القضايا، ولا هي ضجتي، تلك التي يخلقها وجودي بين الآخرين.

إذن، ما أنا؟ ما دمت لست كما يراني الآخرون؟

أنا، . . ؟ أنا رجل شقي، وحيد. أنا عبد، وأنا خادم. كل قوة في كياني وكل ذرة في وجودي تخضع لإله قاس، جبار، يمتلكني اكثر مما امتلك نفسي.

أنا أبكر صباحاً وأسهر ليلاً، أنا ألعب البريدج وأحضر الاجتماعات، أتولى القضايا وأقهقه عالياً، وأعبث بفتاة وانساق وراء شهوة. أفعل كل هذا لا لأني أريد ذلك، أنا لا أريد شيئاً، وليس من حقي أن أريد شيئاً. أنا لست رجلاً حراً لكي أحيا كما أريد ولكي أفعل ما أشاء، أنا مجرد عبد ذليل، أشقى بعذابي، أتمزق في جوفي، وأسمع رنين سلاسلي التي قيدتني بعبودية ارتضيتها لنفسي منذ موت أبي.

لقد مات أبي وخلف لي تركة امتصت وجودي وتملكت ثنايا هذا

الوجود وأعماقه، وأمسيت آلة طيعة تفعل بي ارادتي ما تشاء.

منذ موت أبي، وارادتي تحيطني بسياج من الهلع، أرتطم به كلما اوشكت أن تفلت مني نزوة، أو تنزلق مني كلمة ليست خاضعة لمملكة ارادتي. اني مكبل بخوف فريد، بخوف يتسلل الى وجودي من خلايا السياج الذي يحيطني.

أنا لا أخشى شيئاً في الدنيا كما أخشى فقدان السيطرة على نفسي!! حتى الموت لا أخافه ولا أهابه، بل غدا وكأنه حاجة ماسة لاستمرار وجودي. فلولاه لما عرفت الأمس، ولا استطعت أن أتبين الفرصة والأمل اللذين يقدمهما لي الغد.

ان الآخرين يرون في الموت النهاية والعدم، أما بالنسبة لي فالموت لم يكن... ولا في يوم من الأيام نهاية. حتى وفاة أبي ليست نهاية. موت أبي فجر الحياة في جوفي ومهد لي الطريق التي يتوجب علي أن أسلكها حيال الآخرين. لقد مات أبي دون أن ينتهي، فالموت لم يكن نهاية حتى بالنسبة اليه، لأنه لم ينسحب من الحياة بارادته، ولا كان موته هو الذي أخفاه عن الوجود.

انهم الآخرون، هم الذين بتروا وجوده بحكمهم عليه. لقد أعدموه قبل ان يموت لأنهم لم يعوا المثل التي كان يعيشها، ولم يتبينوا معالم الرسالة التي أراد أن يحيا من أجلها. وعندما اعترضه الموت، ظن الآخرون انه قد انتهى، ولكن النهاية لم تكن قد أتت بعد، لأني أنا ما زلت حياً!

أنا حي، وأنا أحيا من أجل أن أثبت وجوده هو بين الآخرين. أنا سجنت حريتي، وكبلت نفسي بسلاسل ارادتي، وأحطت وجودي بسياج من الهلع. أنا فعلت كل هذا لكي أحرر رسالة أبي من الوصمة

التي ألصقها به الآخرون.

واليوم... بعد خمسة عشر عاماً من وفاته، ما زلت أعيش هكذا، أعيش مع الموت... وأسير في الحياة حياً والموت يمثل بموازاتي. اني أعيش بتحفز مستديم لئلا تتسلل تلك اللحظات النادرة الى وجودي، فتطيح بتوازني، وأعيش في خوف متواصل من تلك اللحظات التي تستنفد إرادتي حتى الثمالة.

وكلما اقتربت من ذلك السياج الغامض، واخذت أنوء بثقل التناقض الذي أعيش فيه، تنتابني نوبة غريبة لم أفلح في أن أجد لها اسماً ولا وصفا. كل ما أعرفه عنها هي الأحاسيس التي تسببها لي... إذ أراني على شفير هاوية ما، وكأنني واقف على حبل رفيع أو على صخرة مهددة بالوقوع الى واد سحيق عميق. ويخيل إليّ أني أتأرجح وأصاب بدوار يظل يلح علي حتى أحس بنفسي على وشك الاختناق.

وبالأمس عندما زرت الطبيب وقال لي إن أعصابي مرهقة، فهمت ماذا قصد بذلك. لقد كان يصف التناقض الذي يمزق جوفي، ذلك التناقض الذي لا يفهمه الآخرون.

وعرفت أني سوف أظل وحيداً أصارع الطرفين النقيضين في شخصيتي لئلا أسقط، أو حتى أتزحزح قيد أنملة عن الدرب الذي قدر لي أن أسير عليه في حياتي، وأيقنت أنه لا بد من أن أبقى رجلاً آخر مثل الآخرين، وأن أكون في الوقت ذاته الرجل الذي لا يعرفه الآخرون.

وفي كل مرة تعاودني فيها نوبتي اللعينة، أندفع في البحث عن قرار حاسم أتخذه، أو ألجأ الى أي فعل يشعرني بأني أهز نفسي هزاً وأسعى الى الانتفاض بطريقة ما، لكي أتحرر من ذلك الشعور بالاختناق.

غير أني لا املك الا أن أتساءل، كيف بدأت نوبتي هذه المرة؟ كيف حدثت؟ لعلها بدأت في حفلة الاسبوع الماضي، في حفلة فؤاد نادر. لقد كانت كسائر حفلاته تدفعني الى أن أفكر بكل ما أوتيت من إرادة وعزم. وتدفعني إلى أن أفكر بغير الاسلوب الذي أدمنت عليه منذ موت أبي. والمشكلة لم تكن في مبدأ التفكير، بقدر ما هي في الاسلوب الذي ألجأ اليه فأبحلق بملء وجداني وعقلي في ما أراه يحدث حولي، وأصاب بالقرف والتقزز، لا سيما عندما أتذكر القرف الذي أكون قد مارسته أنا أيضاً.

عندئذ أشعر أن طاقتي على تحمل المتناقضات قد تزحزحت. وأحاول أن أبتعد عن ذلك الجو، ولكني في الوقت نفسه لا أسمح لنفسي بالهزيمة وأحملها على تحمله، وتكون النتيجة أن يتأرجح توازني، وأصاب بالدوار والاختناق.

والغريب أني كلما تلقيت دعوة من دعوات فؤاد نادر، يعتورني شعور بالدهشة من نفسي إذ أظل أقبلها، بل أحرص على تلبيتها. وأنا أقبل دعوته في نفس اللحظة التي تشمئز فيها نفسي من اسمه المنقوش في منتصف البطاقة بأناقة مفتعلة ليست في الواقع سوى صفاقة لا مثيل لها، ففؤاد نادر حين يعمد الى دعوة معارفه وأصدقائه لا يبغي من وراء ذلك سوى منفعته الخاصة، وهو لا يدعوهم إلا لكي يمتص من كل واحد الفائدة التي يستطيع الحصول عليها. إنه يستضيفهم ويكرمهم ولكنه يأكل أكثر بكثير مما يطعمهم.

وأنا أحضر حفلاته منذ سنوات، وأشهد مناوراته وأنصت الى ما يدور حولي، وأتفرج على الشخصيات التي تلبي دعواته، والتي يزداد عددها حفلة بعد حفلة، فيكثر اللغز وتسيطر الهمسات على الاحاديث

الصريحة المكشوفة المآرب، وتخفت الأضواء في «فيلا» فؤاد الأنيقة، بينما تتوسع أعماله وتتشعب، حتى باتت اليوم الأخطبوط المالي الأول في البلاد.

وبالرغم من معرفتي بكافة صفقات فؤاد نادر القذرة، وإلمامي بجميع التفاصيل والظروف التي هيأت له سلم الارتقاء، والأشخاص الذين أوصلوه الى مركزه الحالي، بالرغم من هذا كله، ظل فؤاد نادر. . . صديقي!! وفؤاد نادر صديقي لأنه رجل العصر، ولأنه الرجل الذي انعدمت فيه القيم المعنوية، كما انعدمت في المدينة التي تعيش فيها.

وكما عرفت فؤاداً، عرفت من قبله زوجته نجلا، وعاصرت التغييرات التي طرأت عليها وكادت تودي بنضارتها وبهجتها. عندما دخلت «فيلتهما» في الاسبوع الماضي، استقبلتني نجلا بعينين يطل منهما جزع خلته قد خبا وذاب من عذاب كان يتبعها كالظل. وتذكرت الأيام الماضية حين كنت أتجاهل الدمعة المكتومة في عينيها لأوفر عليها مذلة الاعتراف بالواقع. وكدت أتجاهلها في تلك المرة أيضاً، إلا أنها لم تتركني أتخطى مشاكلها ولا رضيت أن تجاريني بابتسامة مفتعلة، بل سحبتني من يدي وأخذتني الى المكتبة ثم اغلقت الباب خلفنا، وانفجرت فجأة. . . تبكي وأنا أمامها مندهش. ولم يكن لدي مفر من الجلوس معها أرقبها ريثما تهدأ. وبالرغم من أني كنت أفهم ألمها وعذابها، إلا أني أكره مشاهدة امرأة تبكي في أي حال من الأحوال، إذ ليس عندي الصبر والمقدرة على استرضاء أي امرأة تبكي.

وبعد أن تركت نجلا لدموعها برهة وجيزة قلت لها:

- أما كفاك بكاء، أما كان أجدى أن تشرحي لي ما حدث؟

- كمال، لا تحدثني بقسوة، أنت لم تنفك تحدثني بقسوة، منذ عشر سنوات، هل تذكر يا كمال، منذ عشر سنوات.

- مالنا وللماضي الآن، لنتكلم في الحاضر. هيا، إن الناس ينتظرون في «الصالون».

ـ ولكنني أريد أن اعود الى الماضي، اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأني أريد أن أعترف لك بندمي. أنا نادمة يا كمال، ويحق لك أن تعلم هذا على الاقل، يجب أن تعلم أنك كنت على صواب حين لم توافق على زواجي من فؤاد.

ـ ولكنني أعرف يا نجلا، أعرف أني كنت على صواب. وكنت واثقاً من ذلك منذ اللحظة التي بدأ فؤاد يفكر بالزواج منك. وانت تعلمين كم حاولت بكل ما أوتيت من لباقة أن أبعد بينكما وفشلت، فتركتك لحالك حتى جئت تسأليني رأيي في زواجكما.

ـ كم كنت قاسياً، لما حدثتني هكذا يا كمال؛ لماذا لم تلجأ الى اللين والعطف، لربما كنت أثنيتني عن عزمي، لربما كنت سمعت منك وانصعت الى رأيك.

ـ كيف كنت تريديني أن أحدثك بلين يا أيتها السيدة، وانت جئتني بتحد، جئت تغريني بجمالك، وتتحديني به، لأن فؤاد نادر أخبرك أن السبب في عدم تشجيعي زواجكما كان اهتمامي بك!

وصاحت نجلا مبغوتة:

ـ وكيف عرفت؟ يا لمصيبتي! أنت تعرف ما قال منذ ذلك الوقت، ولم تتكلم، ولم تفصح لي عن أي شيء؟!

كيف عرفت يا كمال، كيف؟!

ـ عرفت. . لأني أعرف فؤاداً، وأعرف اسلوبه بالتفكير. ولذلك نصحتك بعدم الزواج، نصحتك من أجلك أنت، وليس لأني كنت أريدك زوجة لي!

ـ ولماذا لم تهتم بي ولم ترغبني؟ ألم أكن جميلة، ألا أصلح زوجة لك، لماذا؟ ما بالك صامت؟ أم أنك تنظر إلي اليوم على أني من طبقة فؤاد، ومن طينته؟

ـ نجلا، أنا لم أنس أبداً من أنت. ولقد احترمتك طيلة تلك السنين لأني لم أنس أن ثمة أواصر صداقة كانت بين عائلتينا.

ـ اذن؟ لماذا لم يخطر ببالك أن تهتم بي، ألم تجدني جميلة؟

ـ لقد كنت جميلة، وكنت أريدك فعلاً، ولكني لم أفكر بالزواج.

ـ لماذا؟

ـ هكذا!

ـ كيف هكذا؟

ـ هكذا. . اقولها بكل بساطة!

ـ صدقني يا كمال. يخيل الي أحياناً أنك لست الرجل الذي عرفته منذ طفولتي. هناك غموض غريب يكتنفك، غموض يسد جميع المنافذ الى دواخلك، ولا أعود أعرف ماذا تريد وماذا تحس.

ـ المهم الآن ليس أنا، بل انت. هل تشعرين بتحسن؟ قلت لها ذلك وقد بلغ بي الضيق أشده، وأردت أن أهرب من الغرفة بأي وسيلة. ولكن نجلا اقتربت مني، وقد اختفت فجأة من عينيها كل آثار الجزع والذل والاستسلام وأطل منهما بريق متيقظ، يكاد يكون متوحشاً.

وكانت نجلا في تلك اللحظة رائعة في جمالها، فأخذت أتأملها لحظات قليلة بينما كانت رغبة قوية اليها تدب في نفسي، وكأنها استفاقت من غياهب الماضي عندما كنت شاباً في الثلاثين. وأحجمت عن تلبية رغبتي كما فعلت من قبل مراراً عديدة، ولبثت اتأملها وأنتظر. وفاجأتني بحماسة لم تظهر في نبرات صوتها منذ زمن بعيد، وقالت لي بنفس التحدي الذي كان يرافق شخصيتها الماضية:

ـ كمال، لقد طلبت الطلاق من فؤاد!!

وأسرعت اللحظات دون أن أجيب، فاقتربت مني أكثر وأعادت جملتها بتمهل واصرار وحدقت بي، فخيل الي أن الواقفة امامي امرأة أراها للمرة الأولى في حياتي.

ولكني بقيت أنتظر في مكاني، فخطت نحوي من جديد، ووضعت يديها على كتفي وقالت:

ـ كمال، هل فهمت ماذا أقول؟ لقد طلبت الطلاق من فؤاد!

عندها فقط ارتحت ليديها اللتين وضعتهما على كتفي، وارتحت لنبرات صوتها، ولوقفتها الواثقة، وكأنها قد تخلصت نهائياً من عدم الثقة بنفسها.

عندها فقط بالإمكان أن أجيبها، لأنها كانت قد اكتملت امامي كامرأة ناضجة، ومتأكدة مما تقول. وسألتها:

ـ ولماذا هذا القرار بعد عشر سنوات؟

فابتسمت وسحبت يديها من على كتفي ببساطة:

ـ لأني تحررت منه ولم أعد اطيقه. بل أصبح هو الذي يحتاجني اكثر مما احتاجه.

ـ اذن سيطري عليه انت .

فضحكت وقالت :

ـ أنت تعلم أني لا استطيع ان اسيطر على فؤاد، الا اذا لجأت الى فضح أعماله وأساليبه .

ـ ولماذا لا تفضحينه؟

ـ لأني كنت زوجته . .

ـ وتريدين الطلاق لكي تفضحينه؟

ـ كلا، أريد فقط أن اعيش، اريد ان ألهو وأضحك وأصخب . لا اكثر ولا اقل . لم يعد يهمني شيء في الدنيا سوى الراحة، الراحة من سيطرته!

ـ يهمك هذا اكثر مما يهمك أن تفضحيه؟

ـ بلا شك! واذهب معك الى أبعد من هذا . اني ادفع معلوماتي عنه كلها، ثمناً لحريتي . لقد هددته بالفضيحة اذا لم يوافق على الطلاق!

ـ وماذا أجاب؟

ـ قال انه سيفكر في الأمر.

وسكتت نجلا قليلا ثم قالت :

ـ لم تقل رأيك بعد، هل ستساعدني؟ أنت الوحيد الذي يستطيع أن يساعدني .

ـ كيف، بالتهديد؟

واتسعت حدقتاها وهي تقول :

ـ كلا، لماذا التهديد؟ وهل تعرف عنه انت اكثر مني؟

ـ كلا، لا أعرف أكثر منك.

قلت هذا وانا أتنفس الصعداء، اذ خيل لي لأول وهلة انها تعرف كل الحقيقة ولكني اكتشفت انها لا تعرفها كلها، لا تعرف كيف بدأ فؤاد، ولا تعرف الحلقة المفقودة في حياة الاخطبوط.

ووضعت يدي على كتفيها، وقلت لها:

كلا يا نجلا، لا تطلقيه!

وكبتت خيبة أمل كبرى في عينيها وفي صوتها عندما قالت بحشرجة:

ـ لماذا يا كمال؟ لماذا لا تريدني أن أعيش؟

ـ أريدك أن تعيشي يا نجلا، واريدك ان تجدي السلوى والمتعة والراحة، ولكن بدون طلاق.

ـ ولكن كيف بدون طلاق؟

ـ هكذا.

ـ هل عدت من جديد الى غموضك؟

ـ اليس لديك الثقة الكافية بي؟

ـ أجل

ـ اذن ثقي بي.

ـ صحيح؟

ـ أجل يا نجلا، صحيح.

وتململت في وقفتها قليلاً، ثم لجأت الى أقرب كرسي لتجلس عليه وغابت في أفكارها. ولم أحاول أن أعرف ماذا يجول بذهنها، لأني كنت أحاول ان أجد اسرع وسيلة لإقناعها بعدم الطلاق. كان من الضروري أن تقتنع في تلك اللحظة، وإلا تراجعت أو تهورت. ولم اكن اريدها أن تتطلق، لأنه كان واضحاً لدي انها سوف تتمادى في طلب كل من منع عنها طوال عشر سنوات. ولعل أكثر ما كان يؤذيها ويجرحها هو أن أي إنسان لم يلتفت اليها لأنها هي نجلا! كان الناس يستميلونها رغبة في إرضاء زوجها، وزوجها يسترضيها ليحصل على معارفها وصداقاتها العائلية. وهو في الحقيقة لم يقترن بها الا لانها تنتمي الى عائلة كريمة. وتجاه أحاسيسها هذه لم يكن من المستبعد أن تذهب نجلا الى أبعد الحدود لتثبت أن هناك من يريدها لنفسها.

وكانت مهمتي في تلك اللحظة أن أثبت لها أنها تستطيع أن تكون إنسانة مرغوبة بالرغم من كونها زوجة فؤاد، وليس لأنها زوجته، بل لأنها هي، فاقتربت منها وجلست بجوارها، وأخذت يدها بيدي، وتطلعت الي بدهشة، وشعرت بيدها تضطرب بين يدي فهمست:

ـ نجلا استريحي، اسندي رأسك الى الوراء، واسمعي ما أقول.

وقاطعتني:

ـ حتى أنت لا تحس معي! وحتى أنت لا تريد سعادتي!

ـ أنا أريد سعادتك، ولذلك لا أريدك أن تتركيه، يجب أن تعودي الى عقلك الآن يا نجلا، إنّ باستطاعتك أن تحصلي على كل ما تريدينه دون أن تتعرضي للطلاق وفضائحه ومشاكله مع الكنيسة. ثم هنالك أولادك، كيف نسيت أولادك يا نجلا، انت لم تذكريهم مرة واحدة! فضحكت ساخرة:

ـ وهل يحس أولادي بوجودي، وهل لهم ثمة أمل أن يعيشوا في جو عائلي؟

ـ هذا واجبك أنت، أن تعوضي لهم. اعتني بهم وابحثي عن سعادتك معهم، عيشي يا نجلا وكأنك مطلقة، وأؤكد لك أنه لن يطلب منك أكثر من هذا. أنت ستربحين بهذا القرار وستربحين اكثر من قبل.

ـ أكثر من الطلاق؟

ـ نعم أكثر من الطلاق، واكثر من حالك السابق. حال اللامبالي والضعيف والمستسلم. كوني امرأة من جديدة، كما أنت الآن في هذه اللحظة وسوف ترين! حاولي على الأقل.

ـ ماذا تريدني ان أحاول؟

ـ أن تظلي امرأة واثقة من نفسها، كما انت الآن.

واستدارت نحوي وقالت:

ـ وهل تجدني أنت. أنت بالذات امرأة جذابة؟

فقلت:

ـ ماذا تظنين يا نجلا.

ـ لا أدري . . .

فأمسكت بكتفيها برفق، وقلت:

ـ أنظري لي جيداً، ثم قولي . . ما تظنين؟

ولم تجبني بل قربت وجهها مني، والتصقت شفتاها بشفتي فهمست من بين انفاسي:

ـ انت لذيذة . . يا نجلا . . لذيذة .

قبل أن نترك المكتبة قالت لي :

ـ سأحاول يا كمال ، سأعتمد عليك .

ـ اعتمدي على صداقتي وحسب يا نجلا ، ولا تنسي أني لا أعبث مع أمثالك ، وأنت قد عرفت الآن ما أردت أن تعرفيه منذ سنوات .

فهزت رأسها وقالت :

ـ على كل حال ، إذ احتجتني فأنا مستعدة .

فالتفت اليها بعصبية :

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ ستعرف عندما تدخل الصالون! ولكن إياك أن تنسى قضية الطلاق!

وكان الصالون عند دخولنا يعج بالناس ، وقد تفرقوا جماعات جماعات . واستقبلنا صخب الضيوف وضجيجهم وتعالت ضحكاتهم من كل ناحية وصوب ، تلاشى صوت الموسيقى بين اصوات الصراخ والقهقهات . وكانت زجاجات الخمر تفرغ في بطون المدعوين بينما أخذ قناع الوقار يسقط رويداً رويداً عن وجوه كبار الساسة ورجال الأعمال فتندفع الى خارج شخصياتهم الأصلية وتتعرى مآربهم الحقيقية .

ولمحني فؤاد قبل أن تصلني كأسي الأولى ، وكنت ما زلت مع نجلا ، إلا أنها اختفت حالما اقترب منا . وقال فؤاد وهو يفتش عنها بعينيه :

ـ يظهر أنها أخبرتك اليس كذلك؟

ـ نعم أخبرتني.

وسكت، وكأنه بانتظار تعليق مني، ولكني لم أقل شيئاً، وتركته ينتظر. وأخذت أتفحص الوجوه علني أجد خيطاً يدلني على ما نبهتني إليه نجلا عندما قالت إني قد احتاجها. وكنت أرى فؤاد من طرف عيني بقامته القصيرة ورأسه الأصلع، يقضم أظافره غيظاً من صمتي. وكنت أعلم أنه قال لنفسه عشرات الأشياء التي بوده أن يقولها لي. وكنت أعلم أيضاً أن عدم اكتراثي به وهو يكتم في نفسه المفاجأة التي يخبئها لي، سوف يخرجه من طوره.

وسرعان ما فقد أعصابه وصاح:

ـ مابالك صامتاً هكذا؟ هل تريدني أن أظل طوال حياتي كلها عبداً لك؟

ووقع بصري على انطون في نفس اللحظة التي كنت سألتفت فيها الى فؤاد وأسأله عن الطريقة التي يظن انها سوف تخلصه من عبوديته لي، ولكني عندما رأيت انطون عرفت في الحال ما انتوى أن يفعل فؤاد، وأيقنت أن اليوم الذي كنت انتظره قد حل، وان فؤاد نادر سوف يحاول من الآن فصاعداً أن يتخلص من نفوذي إذ لم يبق سواي من يحمل دليلاً للناس عن حقيقته. وخيل إليّ أني على وشك التقيؤ من شدة قرفي، وفي تلك اللحظة ابتدأ احساسي بالدوار والاختناق، ابتدأ في اللحظة التي صممت فيها أن أصطحب انطون واختفي من الحفلة، وليذهب فؤاد وزوجته، وكل ما يؤديه من خدمات الى الجحيم.

ولكن دواري كان قد بدأ خفيفاً واختفى في الحال. فاستدرت الى فؤاد وقلت بهدوء:

ـ لقد نصحت نجلا أن لا تطلقك .

فصاح وكأنه غير مصدق :

ـ نصحتها ألا تطلقني ، أنت نصحتها أن لا تطلقني ، لماذا؟؟ ماذا تر. . .

وعرفت أنه سيقول ماذا تريد، ولم يكن من الحكمة أن أتركه يسترسل في هفواته فبادرت الى اسكاته بوضع اصبعي على فمه .

ـ صه ، صه ، إنتظر إلى أن تسمعني حتى النهاية .

ـ ما هي الشروط؟

ـ سأخبرك عنها بعد ذهاب الناس .

وعادت أعصاب فؤاد تهتز:

ـ ولماذا بعد ذهاب الناس، لماذا لا تخبرني الآن، الا تعلم إنها هددتني ، هددت أن تفضحني، إنها مجنونة، لقد جنت فجأة، ولو سمعتها تتكلم لتأكدت انها لا تتورع عن أن تسكت الضيوف أجمعين بقصصها عني .

فصرخت به :

ـ فؤاد . . أين توازنك؟

وسكت فؤاد وهو يتنهد ـ شعرت بالظفر لأن التعب بان على محياه ، وأخذت اتلمظ بمراقبته وهو يشرب كأسه دفعة واحدة، ثم عاد يتكلم بهدوء :

ـ لا أدري ماذا دهاها بعد عشر سنوات. صدقني يا كمال ،

صدقني. انا حبيبك، صديقك، يا سيدي عبدك الى ما شاء الله. صدقني انها كفيلة بالإقدام على عمل جنوني. اني متأكد من ذلك فهي منذ يومين في حالة هدوء مخيفة. انها تتصرف وكأنها بالفعل لم تعد زوجتي. خبرني، بربك خبرني ما هي شروطها.

وابتسمت بخبث، فقال فؤاد:

ـ أم أنها شروطك أنت؟

وافتعلت ابتسامة مندهشة وأنا أسأله:

ـ شروطي أنا؟ ما دخلي أنا في القضية كلها حتى تكون لدي شروط؟

فطأطأ رأسه، وانتهزت الفرصة وقلت:

ـ أرجو أن لا تكون قد انطلت عليك تلفيقاتك فصدقتها بدورك، صدقت مثلاً أني أريد أن أتزوجها؟

وانتفض فؤاد كما توقعت أن يحدث، وانبرى يدافع عن نفسه، وينفي أي خاطر من هذا النوع.

وجاءت الفرصة الثانية التي كنت أنتظرها، فسألته:

ـ اذن ما الذي دفعك الى الظن بأن الشروط من عندي، قل، أخبرني، الآن!

ـ لا شيء، لا شيء..

وتذكر فؤاد، تذكر الشيء الذي أريده أن لا ينساه، ولا للحظة في وجوده.

ـ إذن سأبقى حتى ينصرف الضيوف لنتحدث في الشروط .

ـ كما تريد، كما تريد، وكلما أسرعنا في انهاء الموضوع، كلما كان ذلك افضل .

ـ وهكذا كان رأيي عندما بحثت المشكلة مع نجلا .

وتركت فؤاد محتاراً في اكتشاف الشروط التي قد تطلبها زوجته، لربما تساءل عن مدى علاقتي بها وما يمكن أن أدبره أنا من خطط . تركته وقد توصلت الى اخضاع تمرده علي، وهو لا يعلم بعد أني رأيت انطون وعرفت نواياه .

وهكذا بدأت خطة فؤاد لتلك السهرة على غير الاسلوب الذي هيأه، وجاء طلب زوجته بالطلاق في وقت غير مناسب له . ولو كانت المسكينة قد عرفت بنيته، لما وجدت ظرفاً أنسب مما اختارته صدفة .

ورحت أبحث من جديد عن انطون، وكان يجلس مع مدير البنك الوطني في زاوية منفردة . ولعنت فؤاد في سري، لقد رمى صديقي طعماً دسماً لمدير البنك . ولمحني انطون مباشرة وكأنه كان ينتظر وصولي، فهرعت اليه وقلت له :

ـ الجريدة تطلبك بالتليفون، تعال بسرعة!

وانسحب من مكانه فأخذته الى ركن اشد ظلمة وانفراداً، وهناك جلست أصب عليه غضبي . وبعد أن افرغت ثورتي، انبرى ليدافع عن نفسه :

ـ ماذا حدث؟ ومن اتصل بي؟ وأي ضير في حضور حفلات فؤاد

نادر؟ أنت تحضرها، وأنا حضرتها من قبل، ولكن قل لي من اتصل بي؟

ـ لم يتصل بك احد، انها كذبة اختلقتها لكي أسحبك من هذا الرجل . . أخبرني الآن كيف وصلت الى مدير البنك الوطني؟

ـ فؤاد طبعاً .

ـ فؤاد! ! أدري انه فؤاد، ولكن من أخبر فؤاداً بمشاكلك وحاجتك الى المال!

ـ ألم تخبره أنت؟

ـ طبعاً لم أخبره أنا . . أخبرني أنت كيف عرف؟

ـ لقد التقيت به صدفة في بار السان جميس، فأخذ يمتدح جريدتي واتجاهها المعتدل وخطها الوطني، ثم أبدى أسفه الشديد على ما حدث، والعجز الذي وقعت فيه بعد حادثة الاختلاس والتزوير التي قام بها مدير الادارة . وسألني اذا كنت قد حصلت على المبلغ المسروق أم لا . . .

ـ وأخبرته أنت . ان الرجل مفلس .

ـ وأي ضرر في ذلك؟

ـ واقترح فؤاد أن يساعدك!

ـ تماماً .

ـ ودعاك الليلة لكي تلتقي بمدير البنك .

ـ بالضبط .

ـ والى أين وصلت ببحثك مع مدير البنك . ؟

ـ لم ندخل بالتفاصيل بعد، لقد كنت أنتظر وصولك.

ـ وما دخلي أنا في الموضوع كله؟

ـ كيف ما دخلك أنت؟ ماذا دهاك يا كمال؟ أليس فؤاد صديقك، ومدير البنك صديقك؟

لقد خيل الي من حديث فؤاد انك انت الذي أخبرته، وانه تطوع لمساعدتي بناء على اقتراحك أنت.

ـ ومن أين أتيت بهذه الاستنتاجات؟

ـ قلت لك خيل الي أنك أنت الذي اخبرته بعد تلك الليلة، وحديثنا الطويل عن القضية وكيفية حلها!

ـ الا تعرف أن هذا المعتوه مدير البنك يطمع برئاسة الجمهورية؟

ـ نعم مدير البنك الوطني نفسه!

ـ سمعت انه يحلم بذلك، ولكن كل شيء له حدود!

ـ أي حدود؟ ليس لاحلام هذا الرجل ثمة حدود، يكفي أن يحلم بالشيء لكي يصدق أنه واقع ممكن.

ـ وما علاقة فؤاد نادر بكل هذا؟

ـ مدير البنك يسلفك المبلغ الذي تريده بالشروط التي تناسبك، ومقابل ذلك يسيطر على توجيه جريدتك.

ـ هل هو مجنون، ألا يعلم أن ما من انسان يستطيع أن يسخر جريدتي لأغراضه؟ ألا يعرف اتجاهي؛ هذا المتطرف الأجوف؟ ثم فؤاد

نادر ماذا يستفيد من كل هذا؟

ـ انت قل لي ماذا يريد فؤاد نادر . .

ـ اتقصد أنه يستفيد شيئاً غير السمسرة؟

ـ نعم غير السمسرة اقصد؟

ـ ايريد مركزاً؟

ـ هذا هو مأربه في الظاهر، أما في الباطن فأنت تعلم مدى علاقته بالرئيس، وتعلم ايضاً تأثير الضجة التي تخلقها جريدتك في الأوساط التي تهم الرئيس بالذات. أما مدير البنك فإنه ليس سوى آلة طيّعة بيد فؤاد، لأن فؤاد يملك اكثرية اسهم البنك.

ـ الآن فهمت. . في الحقيقة ليس هناك طريقة مناسبة للرئيس اكثر من استطاعته التوجيه من وراء مدير البنك لكي يصل هو إلى ما يريد. .

وسكت انطون برهة والتقط كأسه فقلت له:

ـ فؤاد نادر سيزورك في الأسبوع القادم وسيعطيك خبراً صحفياً هاماً. وهو لن يذكر لك شيئاً عن هذه الليلة. أما أنا فسأحاول أن أعرف الخبر قبل زيارته لك، فأطلعك عليه لكي تقول له إنك تعرفه، ثم تشكره وتتخلص منه بأقصى سرعة دون أن تذكر له أنت أيضاً أي شيء عن هذه الليلة.

ـ وكيف عرفت أنت أن كل هذا سيحدث؟

ـ لأني أعرف فؤاداً. إنه لا يطلب قبل أن يعطي. وإن كان في الحقيقة يعطي أقل مما يطلب، ولذلك فأني انصحك بأن تحذر منه من

الآن فصاعداً، لأنه سيحاول مرة أخرى أن يجرك الى التهلكة.

ـ والآن ماذا نفعل.

ـ ما رأيك؟

ـ سانسحب بهدوء.

ـ إلى اللقاء إذن.

على فكرة لقد أمضينا سهرة ممتعة مساء أمس أليس كذلك، ومدام جاكلين هذه ألا ترى أنها سيدة رائعة؟

ـ بالفعل، انها سيدة جديرة بالمعرفة.

وخرج انطون دون أن ينتبه أحد الى انسحابه، وكنت أنا الضيف المتبقي الوحيد بدلاً منه ومن مدير البنك الوطني، فقد كان فؤاد ينتوي ابقاءهما لإتمام صفقته. وحدثتني نفسي أن لا بد من وجود شيء ما في الأفق وإلا لما تجرأ فؤاد أن يقدم على مثل تلك الخطوة بكل صفاقة أمام بصري. لا بد أنه اتفق مع الرئيس على شيء ما، هذا ما يجب أن اعرفه، وعندما أخذت استعد للانصراف بادرني فؤاد بالسؤال:

ـ ألن تبقى قليلاً كما اتفقنا.

ـ لا أظن ذلك ضرورياً.

ـ كيف؟ ألن نبحث الشروط؟

ـ الشرط الوحيد يا عزيزي هو أن تترك نجلا لشأنها تفعل كيفما تشاء.

ـ أهذا كل ما تريده، أهذا هو الشرط؟

ـ هذا كل ما تريده هي، لقد كلفك غالياً اليس كذلك؟ فخفض رأسه وتمتم:

ـ على أي حال، إبق معنا بعض الوقت.

ـ كان بودي ولكني وعدت أن ألحق انطون.

وبلع فؤاد ريقه وطأطأ رأسه فصافحته وودعت نجلا وخرجت تاركاً فؤاد ينام ويحلم بكابوس استنتاجاته!

٢

عدنا الى البيت وأنا مجهدة، مخمورة، متهالكة، ولا أظن أن زوجي أحس بالعاطفة المكبوتة في جوفي لأني كنت هادئة في زاوية السيارة، أرتجف تحت معطفي الثقيل. وزوجي لا يحس بخلجاتي إلا إذا رآها وتلمسها. إنه يتطلب براهين مادية لكي أثبت وجودها، وكأنه لا يصدق أي شيء إلا إذا رآه بعينيه. وطالما تساءلت، إذن كيف لا يحس بجسدي، وكيف لا يعرف أن فيه لحماً وعظاماً، وعروقاً وأعصاباً ودماً يجري، لقد أمسك جسدي مراراً، ألا يذكر، ولكن من أين له أن يذكر حيويتي ما دام لم يتفاعل وإياها؟

وحساسيتي ألم يخش عليها ضحكاتي العالية في تلك السهرة؟ ألم يخطر بباله مطلقاً أن يتساءل من أين أتى بريق عينيّ العجيب؟ كيف غاب عنه أن يلمح بريق عينيّ العجيب المتوحش ما دمت أنا قد خشيت التطلع الى نفسي، لئلا أمسك بأول شيء تقع عليه يداي فأكسره؟

وعندما دخلنا البيت طلبت منه أن ندخل مكتبه قليلاً، فوافق بتردد لم يخف علي.. واستمع اليّ اتكلم وأنا اقف وأجلس عشرات المرات خلال الدقيقتين، استمع اليّ بصبر أثارني وببرودة كادت تفجر شيئاً ما.. فصحت به، وظللت أصيح ولكنه ظل صامتاً.

ـ أجب، قل أي شيء، ولكن لا تظل تهز برأسك هكذا الى الأبد.. ساعدني، من غيرك يستطيع أن يساعدني؟

وتطلع الي بدهشة وقال:

ـ ماذا تريدين أن افعل، أنت تشكين من الدوار، وتشعرين بشيء ما في صدرك يكتم عليك أنفاسك وتقولين إنك تحسين بالقلق، وهذه كلها أمور مبهمة، أنت نفسك لا تفهمينها... لقد كنت في الحفلة مبتهجة مثلما لم أرك من قبل، ماذا حدث؟

وصحت:

ـ هل من الضروري أن تحدث كارثة لكي أتضايق، ألا يخطر ببالك أبداً أن الأنسان قد يصيبه الضيق من أمور مبهمة؟

ـ صدقيني يا جاكلين، أنا لا أفهمك. لا أفهم لماذا تفتشين عن الازعاج وقد كفاك الله مسبباته!

وخيل الي أن الصوت الذي سيخرج مني سوف يكونَ عويلاً لا صراخاً:

ـ أنا لا أفتش عن المزعجات.. هذا ما لا تريد أنت أن تفهمه. أنا أريد أن أتخلص منها، ألا تفهم؟!

ـ كلا، صدقيني إني لا أفهم. لماذا لا تذهبين الى دكتور؟

وهبطت علي نصيحته كالكارثة، وشعرت بنار تتأجج في داخلي، هدوء مفاجيء يستحوذ علي:

ـ دكتور!!

ـ نعم دكتور.

ـ تريدني أن أذهب الى انسان لا أعرفه، وربما لا أرتاح اليه ليصبح

صديقي، ليساعدني، ليفهمني، لا لشيء إلا لأني أدفع له أجرته؟

ـ يخيل إلي يا جاكلين أنك تفتشين عن العذاب، وأمسى يلذ لك أن تشعري به.

ـ أنا؟!

ـ لماذا إذن ترفضين الذهاب الى دكتور؟

ـ للأسباب التي ذكرتها.

ـ وهل هذا منطق؟

وخرجت من مكتب زوجي وكأن أستار الدنيا كلها قد اسدلت بيننا. وصعدت تواً الى غرفتي، وأغلقت الباب خلفي وتمددت على سريري وقلبي يقفز حولي مضطرباً.

شعرت كما لو أني تلقيت من الصفعات والضربات ما لا يحصى ولا يعد، وكأني قضيت اليوم كله في هاوية تكتنفها الأشباح، وأنا لا أجرؤ أن أتحرك لئلا اصطدم بشيء ما. وكلما تطلعت الى فوق كانت صورة زوجي تبتعد وتتلاشى، فتتلقفني ظلمة حالكة. واستمرت الساعات تمضي وأنا افكر في لا شيء...

لا شيء.. لا شيء..

أمسك كتاباً، أقلب مجلة، أتفرج على صور ولا أجد شيئاً، أفتش عن الناس حولي فلا أجد إلا اللاشيء... اسأل نفسي ماذا أريد؟ فأجيب: لا شيء.. أين أريد أن اذهب؟..

الى لا مكان. أحاول أن أتذكر الماضي، فتختلط عليّ الصور

والأمكنة، وفي النهاية ارى «لا شيء». حتى أمسيت أسمع صدى الفراغ الذي يلفني فأضيع واتلاشى فيه وأمسي أنا ايضاً. . لا شيء. .

أين المنطق في كل هذا؟ ليس في الدنيا كلها، في جميع مفاهيم البشرية، وكافة قيم الانسانية ما هو أبشع من المنطق في هذه الحالة. المنطق؟ المنطق هو أن أرحل، وأن أعود الى حيث تركت روحي ووجداني، الى عاصمة الروح والوجدان بالذات، الى الشمس، الى الحرية، الى حيث تشع نفسي وينطلق لساني فينطق بما أحس، وبما افكر، بما أريد وبما أحب وبما اكره، لينطق لساني بالحقيقة.

إلا أني عشت عشر سنوات لا أتفوه إلا بالقول المناسب والجملة الهادئة، بالضحكة الرزينة والرأي الذي هو لا رأي، بالشعور الذي يذوب بالتدريج مثلما يتلاشى دخان السجائر في الهواء.

عشت عشر سنوات أنام وأقوم، وألبس وآكل وأشرب لا كما أريد أنا، ولا كما أحس أنا، ولا حتى كما يريد زوجي أو أمي التي ماتت، أو إبني الذي لن يولد ابداً.

عشت عبدة ومعبودة. . . للبروتوكول!

ويا ليته كان لي صبا وشباب، فأرنو اليهما بلهفة المشتاق كلما ضاق بي الحال. إنني لم أملك حتى الذكريات ، فقد قضيت طفولتي معبودة وعبدة ايضاً لشيء اسمه الأنظمة والصرامة والدقة في المدرسة الداخلية.

واحتفلت بأجمل عيد ميلاد عرفته أي فتاة بلغت سن الثامنة عشرة، وفي أجمل بقعة من بقاع الدنيا، وفي أروع جبل من جبال سويسرا، ففي تلك الليلة تقدم لخطبتي رجل في الأربعين من عمره وسيم، لامع، مثقف، حنون، وتأبط ذراعي وقال:

ـ هيا أفرج اوروبا عليك!

وكدت اختنق من روعة أحلامي، وتنفست الصعداء عندما حققت اولها. . وغادر آخر ضيف دارة السفارة وجاء سعادة السفير الذي هو زوجي يقول لي: لقد كنت رائعة!

وظللت طيلة تلك السنوات الرائعة، احقق حلماً بعد حلم حتى وصلنا الى باريس، وهناك فقط ايقنت ان لسعادتي موطناً، ولا يمكن إلا أن يكون باريس، لاسيما، في تلك الليلة التي ادخلني فيها البروفسور برتراند الشهير ـ الى مكتبته!

ومنذ تلك الليلة بدأت أحيا حياتين، فمن باب المكتبة كنت أخرج الى النور! وأخذ ذاك النور يسطع على كتب كانت مخبأة في ظلمتي، وكشف لي خشبات المسارح، وقاعات الموسيقى وزوايا المتاحف، واقبية باريس التي لا تخضع الى نواميس البروتوكول. وتلونت ردهات السفارة وصالوناتها بألوان زاهية، وتلألأ كريستال الثريات على رؤوس كبيرة، وأصبح يقال ان لبنان يجمع بسفارته العلم والنور في كل مكان من الدنيا، وفي تلك اللحظات كنت اشعر أني أحيا من أجل شيء، وأني احقق دوراً معيناً في الحياة. صحيح أنها كانت لحظات قصيرة، إلا أنها كانت باهرة وساطعة تتوارى خلفها الكلمة المناسبة والجملة الرصينة والضحكة الرزينة والإحساس الذي يتلاشى كالدخان. كنت أقول الف كلمة والف جملة، وكنت اكتم الف ضحكة وأكبت الف إحساس من اجل اصطدام طفيف يضيع في زحمة البروتوكول. وكان زوجي يستمع بإعجاب الى تفاصيل اللقاء الذي تمّ بين كاتب من أقصى اليسار وبين سياسي من طرف اليمين فيتوارى الانفجار في الحصانة الديبلوماسية.

هكذا كنت أرى باريس، وهكذا تجاهلت عبوديتي فيها، وكانت ذراعا زوجي تحيطاني بالرعاية والحنان بعد كل حفلة، وكأنه كان يفهم في تلك الأويقات معنى الإرهاق والقلق. ربما كان يفهم تلك الأحاسيس لأنني كنت أفعل له شيئاً ما؟

وعندما وطئت قدماي أرض لبنان، لم يدر زوجي أني تركت روحي هناك. وحين أغلقت باب غرفتي في ليلتي الأولى بعد العودة لم يحاول هو أن يبدد وحدتي، بل كان أول ما لفت نظري ونحن نجول في بيت عائلته القديم، هو غرفتي.. وغرفته. لقد كرس انقسامنا وأكد انفصالنا منذ البداية، حتى باتت علاقتنا لا تحمل من أسس الرباط سوى مظاهره السطحية. ولكم راعني أن اقضي ليلتي الاولى لوحدي، وربما كان ابتعادي النهائي عن العالم الذي كان يقدم لي ما يلهيني عن وحدتي هو الذي جعلني أرى موقفي بوضوح لا مجال للوهم فيه. وكأني في تلك الليلة الاولى بدأت أراجع احلامي التي حققتها، وسعادتي التي وصلت اليها، وعندما أطبق الواقع خناقه علي، ولم يتبق لدي حتى امل الشك، ولم يعد بإمكاني أن أنظر الى علاقتي بزوجي على أنها من مستويات أنصاف الحلول، حتى هذا لم يعد ملكي. وانقشع الغموض كله ولم يظل عندي سوى حل واحد: ان أترك خلفي باباً ليس بالمغلق ولا هو مفتوح، تركته موارباً كي اتسلل منه الى هناك، الى حيث يشع الأمل المتبقي من السيل العارم الذي كنت أسقي به روحي.

وهكذا مضت سنة!

مضت سنة وأنا غريبة عن بيتي وعن بلدي، لأن وجوه الناس لم تصل الى قلبي، ولا وجدت ما يشدني اليهم سوى نفس العلاقة الواهية السطحية التي تربطني بزوجي.

وابتسم الطبيب ايضاً، بعد زيارتي الثالثة، واشعل لي سيجارتي بلباقة، ووضع قداحته الأنيقة على مكتبه، ثم جر كرسيه الى مقربتي وقال:

ـ ولكني لا أفهم، صحتك جيدة وجسمك سليم، كل ما يلزمك هو قليل من الراحة من الحفلات والسهرات التي تحضرينها.

ـ مم أشكو إذن يا دكتور؟

ـ هذا ما يحيرني، لا أفهم كيف أن سيدة مثلك، في سنك وشخصيتك وثقافتك تصل إلى هذه الحالة من توتر الأعصاب.

ـ توتر الأعصاب!

كدت احتضن الرجل اذ شعرت بانتصار كبير، وكأني انتقمت لنفسي وحصلت على حقوقي. وابتسمت بخبث:

ـ أعرف يا دكتور، أعرف أن جسمي في حالة جيدة، حتى اسناني جميلة كما قلت لي في زيارتي الاولى. إن علتي هي أعصابي، وأنا أعرف بل كنت أعرف ذلك قبل أن ألجأ اليك.

وسكت الطبيب ثم قام إلى حيث ترك قداحته وجلبها ليشعل لي سيجارتي الثانية وهو يقول:

ـ أنت تدخنين كثيراً.

ـ نعم.

ـ يجب أن تقلي من التدخين والسهر.

فابتسمت باستسلام وظننت أن «روشتته» أو وصفته قد كتبت. ولكنه قال:

ـ مدام جاكلين، أنا لا أعرفك جيداً، لقد تقابلنا ثلاث مرات فقط، وأظن أننا التقينا في حفلة او حفلتين. ولكني أيتها السيدة العزيزة، أود أن أقول لك اذا سمحت لي بذلك، إنه يسعدني أن أكسب صداقتك. وليس من الضروري أن تقاس الصداقة بالزمن! أليس كذلك؟

وذهلت لكلامه، إذ لم أكن أتوقع ابداً أن ألاقي منه ذلك الاهتمام. فأضاف:

ـ وكم أود يا مدام جاكلين أن تحدثيني كانسان، كرجل صديق، ثم أنا طبيب وإن كنت طبيباً نفسانياً، إلا أنك تستطعين أن تتحدثي معي بصراحة ودون أي حرج. أخبريني مثلاً عن حياتك الجنسية.

وكان الجواب صمتاً رهيباً، ثقيلاً، وكان علي أن أملأ الفراغ بالحركة. ولكني بقيت صامتة أستمع الى نصائحه وتحليله وأنا أكاد لا أصدق أن الرجل كان يتكلم معي. لقد كان أول انسان يحدثني أنا، يخاطب نفسي التي أختبأت وراء ألف قناع وستار. وشعرت بتأثر وانفعال، وخجلت من شعور الظفر عندما قال لي أن أعصابي مرهقة، ووجدت أنه ليس الانسان الذي يجب أن أصب عليه نقمتي، بل هو الانسان الذي يجب ان اتمسك به.

واسندت رأسي الى الوراء على الكرسي، وتنهدت بملء رئتي وتركت العنان، كل العنان لراحتي أن تتمدد وتسترخي عبر كل خلية من مسام جسمي.. وشعرت بالدفء، وخيل الي أني ابتسم للمرة الاولى منذ سنة كاملة. وتكلمت..

وقلت له اشياء كثيرة وحكيت حكايات عديدة ووصلت الى نتيجة

واحدة هي أني اشعر بالوحدة. وتركني اتكلم وهو ينصت، ولكنه لم يأذن لي بالقيام من محلي إلا وأنا اتحفز للوثوب من جديد الى غمرة الحياة. ولم يدعني أصل الى الباب المفتوح إلا بعد ان رضيت أن أغلق باب غرفتي لأفتح باباً جديداً على بلد جديد، هو وطني، ومجتمعي وبيئتي، على أشخاص واجواء لم أعرفها بعد.

ولم يودعني الطبيب إلا بعد أن وعدته بالزيارة كلما شعرت بالوحدة، وخرجت من عنده وبيدي ورقة جعلتني أنام في الليل وأنا أحلم بطيور ملونة تغرد على شجرة بالقرب من نافذتي.

وتصرف زوجي بلباقته المعهودة، فلم يشر أبداً الى نصيحته التي أهملتها في البداية وان كنت أتهيأ مشوقة للبحث عنها. وقررت أن أحاول بنفسي الخوض في الموضوع معه. ودخلت عليه في مكتبه ذات صباح، وكان يطالع الصحف اليومية، فتركته ينتهي من الصحيفة التي كانت بيده وأخذت أرشف قهوتي على مهل. وعندما رفع رأسه وتطلع نحوي قلت له:

ـ هل تعرف أني أتساءل منذ أول مرة رأيتك فيها منكباً على صحفك هذه، ماذا يمكن أن يجد أي انسان مثقف في جريدة يومية ما يستأثر باهتمامه الى هذا الحد؟

ـ ألم تقتنعي بعد بأهمية قراءة الصحف؟

ـ كم تغيظني عندما تعمم ما أقول بهذا الشكل. لم أقل إني لا أعترف بضرورة مطالعة الصحف، ولكني أستغرب مطالعتها على النحو الذي تتبعه أنت. وما لا أعترف بضرورته هو الأسلوب الذي تؤخذ به، فلا يعود يهمك شيء في الدنيا، وتفقد اهتمامك بالاستماع الى أي شيء

كان، الا بعد أن تكون قد فرغت من قراءتها.

ـ ذلك لأني لا اترك الشيء الذي أبدؤه الا بعد أن أكون قد انتهيت منه.

ـ وهناك أمر آخر يغيظني أيضاً، هو اهتمامك بسماع أخبار الراديو في كل ساعة من ساعات النهار.

ـ واي ضرر في هذا؟

ـ لم أقل إن هناك ضرراً، الا أني لا أجد ضرورة لذلك، لأنك سوف تقرأ ما سمعته في الصحف في اليوم التالي.

وابتسم زوجي بصبر وقال:

ـ ألم تشبعي حديثاً عن موضوع الصحف والراديو؟

ـ لا أظن سأشبع الا بعد أن أفهم لماذا وكيف نؤخذ بمثل هذه الأشياء. أنا تكفيني جريدة فرنسية وأخرى عربية أتفحصها وأحصل على الفكرة العامة التي تلزمني. ثم أني لا أجد في هذه الجريدة العربية ما يثير الاهتمام، كيف يقرؤها الناس؟

ـ نقرؤها ملزمين لكي نعرف ماذا يحدث في البلاد، لغة البلاد هي العربية وليست الفرنسية.

ـ ولكن كل الناس يتحدثون الفرنسية!

ـ كل الناس الذين تختلطين بهم انت. أما العامة فإنهم يجيدون العربية.

ـ أليست العربية لغة عقيمة وجافة.

ـ إنها لغة قديمة لعبت دوراً في نشر الاسلام والحضارة الاسلامية.

ـ ولكنها صعبة، وأنا لا أفهمها جيداً عندما أقرؤها.

ـ ذلك لأنك لم تتعلميها منذ الصغر.

ـ أهذا ذنبي؟ أنت تسخر دوماً من جهلي للغة العربية. ماذا أصنع إذا كان أهلي قد ارسلوني الى مدرسة أجنبية؟ لماذ لا تهتم الحكومة بانشاء مدراس وطنية؟

ـ ومن قال لك أنه ليس هناك مدارس وطنية؟

ـ لا تغال بجهلي الآن، أعرف أن هناك مدارس، ولكنك لا تستطيع أن تنكر بأنها دون مستوى المعاهد الأجنبية. وما دامت العناصر الوطنية تشعر بالبغض نحو كل شيء أجنبي، فلماذا لا تعمل على تقوية المؤسسات الوطنية.

ـ إنها تشعر بالنفور لا بالبغض، لأنها تظن نفسها قادرة على تحقيق أهدافها باستقلال تام عن الاجنبي.

ـ ولكنهم لن يستطيعوا ذلك مطلقاً. لقد أصبح العالم مترابطاً الى حد يجعل الانغلاق ضمن بلاد صغيرة أمراً مستحيلاً والبلاد العربية منذ استقلالها ما انفكت تتقهقر.

ـ ومن أين أتيت بهذه الفكرة؟

ـ لقد سمعتها في كل مكان زرته وعشت فيه بأوروبا.

ـ ولكنك اليوم في لبنان، والبلاد العربية تمر بمرحلة دقيقة، مرحلة البحث عن صيغة تضمها الى اطار واحد.

ـ أليست غريبة ملامح البحث هذه؟ إنها لا تصور سوى التفتت والانقسام والتطاحن من أجل السلطة.

ـ هذا أمر يطول شرحه. لم تخبريني ماذا جاء بك إلي؟

ـ إذن أنت تحملت هذا الحديث معي لكي تعرف ماذا جاءبي؟

ـ ظننتك تريدين شيئاً.

ـ نعم كنت أريد أن أخبرك انني زرت الطبيب، وأن اطمئنك أني لن أسبب لك أزمات نفسية بعد اليوم.

وصاح بي:

ـ وأخيراً عملت بنصيحتي.

ـ أهذا كل ما يهمك أن تعرفه؟

ـ جاكلين، من العار أن تشعري بالنقص!!

ـ «العار» و«العيب» هذا كل ما يهمك.. ما يجب وما لا يجب أن يكون. أما كيف حدث وأصبحت أشعر هكذا منذ عودتي من باريس فهو ليس من اختصاصك ولا يدخل عالم اهتمامك.

ـ جاكلين، كفانا حديثاً عن باريس كل الوقت. لو كنت فرنسية لما تذمرت الى هذا الحد. انك تحكمين على كل شيء من خلال افكار بعض المجانين الذين التقيت بهم هناك. هنا عالم آخر، بل انه بلدك، وفيه سوف تعيشين الى الأبد.

ولم اصرخ بوجهه تلك المرة، ولم اعانده، ولم أقاطعه.. لذت بالصمت. ومرت ثوان وعادت لهجته رقيقة:

ـ ماذا قال الطبيب؟

ووجدت نفسي أختار بين أن أصرخ بوجهه قائلة إن الطبيب يفهم المسوغات المعنوية التي تؤدي الى ارهاق أعصابي، وبين أن أبدأ صفحة جديدة، وأغلق بابي الموارب على الماضي.

فأجبت:

ـ لقد قال اعصابي مرهقة ونصحني كما كنت تقول الآن، بأن أعيش في واقعي، وأن أسافر الى هناك كلما شعرت بحاجة الى ذلك.

ـ وهل تشعرين بتحسن؟

ـ لم أبدأ بعد..

تركته وصعدت الى غرفتي وأغلقت الباب خلفي. اغلقته ثم وقفت في شرفتي أتأمل الجبال المغطاة بالثلوج، والأشجار الخضراء على مسافة غير بعيدة منها، وفتشت عن بيوت القرميد وتأملت لندرتها وهي مختبئة، متوارية بين البنايات الحديثة البشعة. وشعرت في تلك اللحظة بحزن عميق. إلا أني كنت استقبل هذا الحزن بترحاب لا يمزقني ولا يطعنني ولا يخيبني، إنه لا يؤلم ولا يحطم. إنه لم يهبط علي كالكارثة ولم يمتصني حتى أكاد أتلاشى، ولم يرمني ببلاهة في وحدة قاتلة قاسية.

اتى حزني هذه المرة سعيداً.

وأخذت أستذكر كم من الوقت مضى وأنا لم اذق شعور الامتلاء، إذ أني لا أتصور السعادة الا نوعاً من الامتلاء. وشعرت أني قد امتلأت بالناس، وحان وقت وداعهم، غير أن أرواحهم سوف تبقى ذكرى في نفسي. لقد كنت حزينة لذلك الوداع، ولكني كنت سعيدة لأني وجدت

ما هو جدير بأن أحزن من أجله. إنه لفراق جميل. . فراق الأصدقاء وبيوت القرميد!

وظل حزني يلفني بحنان، وقد جاء كالبلسم لجروحي. انه أملس ينزلق بي ويدفعني الى نفسي. . الي. . الي «انا» التي لا اعرفها بعد حق المعرفة. غير انني أيقنت أن توصلي الى اكتشاف عالمي سوف يكشف لي حريتي. لأني لن أتأثر بما أجده حولي، ولن يهمني الآخرون ولن أحتاج اليهم لأني سأبني عالماً رائعاً، عالماً كاملاً. وهذا العالم عندي لا تفصلني عنه سوى خطوة واحدة، خطوة فأغدو أنا لنفسي.

وأفقت من تأملاتي وأنا أشعر بدوار، وقمت أتهيأ لحفلة العشاء التي كنا مدعوين اليها، والدوار لا يبرح مسيطراً علي، الا انني لم استسلم له تلك المرة وهرعت الى الحمام أغسل وجهي، وأمسكت بأنبوبة الدواء التي وصفها لي الطبيب، وفتحتها بتمهل وألقيت بالحبة الخضراء في فمي وأنا أتمتم:

- يا لهذا العصر العجيب، لقد اعطى لهذه الصغيرة الملساء مقدرة الانسان! يا ترى هل ستغنيني عن الانسان، هذه الصغيرة الخضراء؟ وأي حبوب يعطونها للآلات التي سبقتني الى الاستغناء عن الإنسان، وأمست تضج حركة وعطاء بمجرد أن يكبس زر صغير؟

وفي تلك الليلة، كبسنا أنا وزوجي زراً صغيراً، وفتح لنا الباب فدخلنا لنضيع بين الناس، لنصبح نحن أيضاً في عداد الآخرين. واستسلمت الى وجود الآخرين وأخذت أفتش عن الغريبات عن أزواجهن مثلي، فجاءتني واحدة منغمسة في العطور والملابس والأصباغ، وابتعدت عني أخرى لتذيب حيويتها في صخب مفتعل، وقدمت لي

واحدة ثالثة كأس خمر كفيلة بأن تغرق الفراغ الذي نلتقي فيه أنا وهي، وجدت شباناً أكثر كهولة من زوجي، لا يملّون الكلام معه، وأكتشفت رجالاً اشد برودة وانغلاقاً منه يتأملون الألوان البراقة حولهم بعيون ثلجية وجفون تكاد لا تتحرك.

وجلست تلك المرة في زاوية، لا اتهافت على الأطعمة الفاخرة ولا الأحاديث المتنوعة. استرخيت باستسلام، قانعة بأني لن أجد خلاصي في جو كهذا. سنة كاملة لم تقنعني بأني استطيع ان أتيه مثل غيري في الأوهام، وفي النشاطات التي أحييت مثل تلك الاوهام، ولم يعد بمقدوري أن أسجل مواعيد لأزور معارض فن مصطحبة معي ابتسامات باهتة، وجملاً ناقصة فارغة. وضقت ذرعاً برائحة السيجار الفاخر وبالشفاه التي تتمتم من خلاله بأحاديث السياسة التقليدية عن من سيصبح وزيراً، وكيف انقلب هذا ضد حليفه التقليدي ليصبح مع خصمه التقليدي.

جلست في زاويتي لا يهمني من يجاورني، ومن انتقل من جانبي، وقبلت غربتي بسهولة أكثر وباستعداد أقوى من السابق، واحتضنت حزني الجديد وتشبثت به كصخرة نجاة وكرفيق مخلص غير مزيف. الا ان حزني أفلت مني وذاب في اللحظة التي وقع بصري فيها على كمال بك! وسارعت أخفي توتري خلف ابتسامة هادئة رزينة، واستعددت بذلك لمواجهته وهو يتقدم للسلام علي. وجلس بجانبي يتساءل عن انفرادي، فأجبته بابتسامة أخرى، ولكنه ظلّ يلح عليّ بالكلام، متحدياً صمتي وابتسامتي البلهاء بملاحظات كفيلة بأن تخرجني من عزلتي. وسرعان ما تعثرت في الدرب الذي كنت أهرب فيه من الآخرين. تعثرت لأن كمال بك قال لي:

ـ أنا أفهم عزلتك هذه، أفهم تماماً أن هذا ليس جوك.

وأجبت وكأني أتحدى اكتشافه :

ـ من قال إني منعزلة اصلاً، الأني أشعر ببعض التعب هذه الليلة؟

ـ ولكني أرى التعب والملل في عينيك كل ليلة يا سيدتي العزيزة .

ـ وانت، هل هذا جوك؟ ام انك تظنني لا أرى في عينيك برودة تختلف عن برودة الآخرين؟ وضحكنا معاً، وسألته :

ـ ما هي آخر الأخبار السياسية، أرى حلقات السياسيين متفككة هذه الليلة؟

ـ الجو ملبد بلا شك، والناس حيارى في اختيار طريق الصواب .

ـ وما هو الصواب في رأيك؟

ـ يا عزيزتي، الصواب لا علاقة له بمصالحهم الخاصة .

ـ كان من المفروض ان يأتي رئيس الوزارة، أليس كذلك؟

ـ ولكنه سوف يتأخر في اجتماعه مع الرئيس .

ـ قل لي، ما هو رأيك بالرئيس؟

وصمت قليلاً وهو يتأمل تفاصيل وجهي وكأنه يفكر بسؤالي مطلقاً ثم قال :

ـ انه الرئيس!

وضحكت قائلة :

ـ لا تظن أنك لم تجبني بما فيه الكفاية .

ـ لم افهم ماذا تقصدين .

ـ لا اقصد شيئاً على الاطلاق.

ـ أرجوك، قولي لي، ماذا يجول بذهنك؟

ـ هل تصر؟

ـ إنك في كل مرة نلتقي فيها ونتحدث بالسياسة تقول شيئاً يدلني على اسلوبك في التفكير وفي رأيك العام بالأمور السياسية.

ـ ولكنك تعرفين جيداً ان لا رأي لي في السياسة، وأنا في هذه المرة لم أقل شيئاً.

ـ ربما احجامك عن اعطاء الرأي، يدلني أنا على أمور عديدة.

وصمت برهة، وهو يتأمل وجهي، وافترت شفتاه عن ابتسامة رقيقة، فضحكت ثم ضحك هو، وضاع لقاؤنا في ضحكة مشتركة من الأعماق.

وتركنا الحفلة أنا وزوجي، وأنا افكر بكمال بك. إنه يستوقفني في كل لقاء، فاقول لنفسي انه ليس كالآخرين انه يقتحم أعماقي ويعذبها فيدفعني الى ان اتحدث بصدق وإلى أن اغوص في نفسي لأخرج بالكلمة المناسبة لسؤال محرج، أو لصمت محرج. انه يتحدى هروبي من الآخرين. وكأن مجرد وقوفه أمامي يجعلني أكف عن اللعبة المملة التي أصبحت أجيدها في الحفلات التي تجمعنا. وكلما تحدثنا معاً اشعر أننا نخلق حواراً ليست له نهاية ولا حتى بداية، إنه ينبثق بعفوية لا يمكنني أن أصفها، إني أحس بجذورها تنبع من أعماقي. ولو رويت حوارنا للآخرين لما وجدوا فيه ما يميزه عن الكلام الفارغ الذي يتجاذبونه.

ولكني اليوم يجب ان أبتعد عن الآخرين حين أخاطب نفسي، وان

أكون مثل الآخرين كلما التقيت بكمال بك . . هذا من الآن وصاعداً .

لقد التصقت بقراري، ولم يعد بالامكان أن أتخلى عن البحث عن عالمي، وكفاني توقفاً عند كمال، لا سيما كمال، إنه كالباب الموارب، إنه كالسراب !

٣

نظرت الى صديقي ابراهيم نظرة عميقة، وكأنني اقرأ في عينيه كتاباً عسر علي فهمه، ثم قلت:

ـ كيف تقول إن إنسانية الفرد لم تعد قضية هذا العصر؟

أجاب ابراهيم:

ـ بلا أدنى شك، وأقول أكثر من هذا يا كمال، انا أعتقد أن قضية العصر أمست تصنيع الانسان!

ـ لا، لا، أنت تبالغ. ومسألة التصنيع هذه وجهة نظر فردية ضيقة ولا يمكن تعميمها. خذ التاريخ مثلاً، انه لن يصف هذا العصر هكذا.

ـ أنا لا يهمني ماذا سوف يقول التاريخ بقدر ما يهمني مصير الإنسان. أنا أنظر الى إنسان اليوم قبل أن أقرر ماذا سيحدث لإنسان الغد، وانسان اليوم قد أصبح كالآلة وككومة الفجل التي تباع على الهامش. إن الانسان لم يعد غاية، لقد أمسى مجرد وسيلة!

ـ وسيلة في سبيل أية غاية؟

ـ في سبيل القوة والنفوذ، وفي سبيل المجموعة التي تبتلع في جوفها الانسان الفذ. ذابت جهود عباقرة هذا العصر وخبت أصواتهم في ضجيج الآلات، وباتوا ككومة الفجل يعيشون على الهامش.

ـ كيف تقول هذا؟ العبقري له مكانته في كل مجتمع وزمان ومكان. أنت تتكلم وكأن هذا العصر يناهض العقول الفذة ويزيح العباقرة من الصف الأمامي.

ـ كلا، أنت تسيء فهمي، ما أريد أن أقوله هو أن جهود الفرد والواحد تضيع في المجموعة، وان العبقرية او الانتاج الضخم يتجلى في العمل الجماعي.

ـ أنت تريد أن تتقدم حضارة الانسان بواسطة الانتاج الفردي وحسب؟

ـ كلا يا كمال، لا تشوّه الصورة التي أعبر عنها. ما يهمني بالدرجة الأولى هي حضارة الانسان، لا نفوذ الدولة أو المجتمع. ألا ترى كيف انقسم العالم الذي نعيشه الى معسكرين سياسيين، يتبنى كل منهما فلسفة كانت في الأصل تهدف الى راحة الفرد وسعادته، ثم تلاشى الهدف الأصيل، وراح كل معسكر من المعسكرين يسخّر الفرد من أجل رغبته في الحصول على نفوذ أوسع من المعسكر الآخر؟

ـ إنك تبالغ مرة أخرى يا ابراهيم. العالم ليس عبارة عن معسكر وحسب، هنالك اتجاه واضح ملموس عند بعض الشعوب يحاول أن لا يضيع في حواجز المعسكرات وانغلاقاتها.

ـ أنت تنظر الى المشكلة من وجهة نظر سياسية، خارجة عن انفعالات الانسان الفرديّة، بينما ينصرف اهتمامي انا الى مواقفه الوجدانية تجاه الحياة التي يحياها كما يريد هو، لا كما تريد منه المجموعة أن يفعل.

ـ والمجموع، أليس هو الأفراد؟

ـ لقد نطقت بالخطأ، ووضعت يدك على مفترق الطرق الذي تبدأ

المشكلة عنده. تقول إن المجتمع هو الأفراد، نعم هو الأفراد، ولكنه بمجرد كونه مجموعة، فإنه يمحو خصائص الانسان الفردية، بل يصبح الانسان غريباً عندما يجد نفسه في قلب هذه المجتمعات.

ـ ماذا تريد إذن؟ أن نستغني عن المجتمع، نفككه ونلغيه، ويعمل كل فرد لنفسه؟ كيف تريدنا أن نصل الى أي هدف اذا ما لم يتتم الانسان الى غيره؟!

ـ انا لست ضد تعاون الفرد مع الفرد الآخر، ولا أنا اطالب بإلغاء المجتمع. كل ما أريد من الانسان هو أن يعي فرديته، ويعرف حقوقه الانسانية. ما لا أوافق عليه هو ذلك الاندفاع مع المجموعة، دون أن يتحمل كل فرد على حدة مسؤولية اكتشاف المفاهيم أو المثل التي يعيش من أجلها. ما لا أرضى عنه هو الانصياع الأعمى وراء طريقة الحياة التي عرفها من غيره، اي من المجموعة. إنه يتكلم مثلها، يفكر مثلها، يحدد مستواه الاجتماعي مثلها. إنه يقنع بالراحة الكسول، ويكتفي بامتلاك ثلاجة وغسالة كهربائية، وراديو وتلفزيون. وعندما يحصل على كل هذا يعتبر نفسه سعيداً. إنه لا يفكر بشراء كتاب او اسطوانة بدلاً من ان يبتعد عن نفسه ليلة بعد ليلة وهو يتفرج على التلفزيون! انه يعيش على نفس الوتيرة التي يجدها عند جاره، ويتبع نفس الأسلوب الذي عرفه عندما خلق ووجد في الدنيا. أهذه هي السعادة؟

ـ هل تريد يا ابراهيم أن يكون كل فرد ثائراً؟

ـ صدقني يا صديقي ان العالم لم يكن بحاجة الى الثوار مثلما هو بحاجة اليهم اليوم. نحن بحاجة الى ثورة ضد اللاشخصية والمادية التي سيطرت على العالم، وجعلت من الانسان آلة وزراً وكومة فجل يلتفت

اليها على الهامش. أنا اريد ثورة لكي يعود الانسان الى عالم الحس والعاطفة والمنطق المبني على اكتشاف ذاتي وموقف شخصي.

ـ انا معك في ضرورة الثورة، وموقفي من الحياة أيضاً شخصي فردي، ولكن نظرتي الى مشكلة الانسان تنبثق من زاوية أخرى. أنت تنظر الى الانسان من ابعاد العالم، بينما أبعاد نظرتي مركزة في الوقت الحاضر على بلادي. انا أرى انسان بلادي قبل أن التفت الى غيره، وانا أهتم بمشاكله وأطالب بسبل العيش الكريم من أجله، لكي أؤمن له خصائصه الفردية التي تتحدث عنها أنت.

ـ أدري، أدري أنك تواجه المشكلة لا من زوايتها الانسانية ـ الحضارية البحتة بقدر ما تعالجها من الناحية السياسية ـ الاجتماعية.

ـ لا يهمني كيف تصنفها لأني اعتقد أن اتجاهي لا يقل انسانية عن نظرتك، ما دمت أريد لانسان بلادي مستوى حضارياً رفيعاً. أما هذا الانسان الذي تتحدث عنه أنت، فانه فرد قد تخطى مشكلة الأكل والمرض والعمل والعلم. والفرد الذي ينام جائعاً يقبل أن يكون كومة فجل، لعله يأكل واحدة منها!

ـ لا انكر عليك حقك في مثل هذا التفكير، الا انك خرجت عن صلب الموضوع الذي نبحث عنه.

ـ كلا، أنا ما زلت في جوهره. لقد بدأنا حديثنا عن رجل يعيش دون وعي فردي، ككومة الفجل، رجل يعتبره المجتمع مجرماً. وأنت تعلم بأنه ليس سوى آلة طيّعة بيد صاحب صالة القمار التي يحرسها، ومع ذلك فانك شجعتني على الدفاع عنه. لقد شجعتني وأنت تعلم بأنه لا يسعى الى الكسب الوفير الا لكي يتزوج، أو لكي يخلف عدداً

أكبر من الاولاد، أو لكي يضاجع نساء أوفر جمالاً من زوجته.

ان هذا الرجل لا يفكر بقيم حضارية، فلماذا تنتصر لأمثاله بينما هم الفئة الأكثر انصياعاً لفكرة المجتمع الذين كنت تهاجمهم؟

ـ ما بالك تشوه أفكاري هكذا، نعم أريدك أن تدافع عن الرجل، لأني عندما أؤمن بحق غيري في نوع الحياة التي ارتضاها لنفسه، أكون قد مارست صميم انسانيتي. وأهم من هذا كله، لا أكون قد حكمت على الرجل بالطريقة التي يريدني المجتمع أن أحكم عليه بها.

ـ ها أنت تعود الى مهاجمة المجتمع.

ـ وكيف تريد مني أن ادافع عن مجتمع يرتكز على مؤسسات مثل مؤسسة القمار وأشباهها؟

ـ أنا لا اطلب منك الدفاع عن المجتمع، أنا أعرف تماماً بأن الدافع لحماستك هورغبتك في أن اتحدى المقاييس المتبعة. أنت تريد أن تخرجني عن المألوف لأن الذين «يهتمون» بالدفاع عن الرجل، اذا لم اقل «يجرؤون» قلائل. انت تريدني أن اثبت «للجماهير» عكس ما يظنون، أليس كذلك؟

ـ لماذا تسألني مثل هذا السؤال وكأنك لست المحامي الذي يريد أن يدافع عنه؟ ألست انت الذي أعرت قضيته اهتمامك الى حد جعلك توقظني في الرابعة صباحاً لنتناقش في الأمر؟

ـ يا ابراهيم ليست هنالك متعة تضاهي متعة النقاش معك في مثل هذه الأمور الفكرية، ولكنك أول من يعلم ان الوقت لم يحن بعد لكي أعيش قيمي الفكرية، أنت تعرف ان كل ما أفعله الآن من أجل الرجل ليس له في الحقيقة ثمة علاقة بمبادئي الانسانية. وأنت تعلم بأني ابعد

مثلي العليا عن حياتي العملية بقدر الامكان.

وصاح ابراهيم:

ـ كفاك نفاقاً، كفاك هرباً من حقيقتك. اكذب واخدع نفسك في حياتك العملية كيفما شئت، ولكن إياك والزيف عندما يتعلق الأمر بقضايا جوهرية ومواقف أساسية، انت لست منفصلاً هكذا عن مثلك العليا، والقصد من اهتمامك بهذه القضية ليس من أجل الفكرة التي في رأسك وحسب، وحتى اذا كنت ستدافع عن الرجل من أجل تلك الفكرة التي ترفض أن تلفظها علناً لنفسك، فانك على الأقل تريد من أجله حياة كريمة.

ـ ليتني يا ابراهيم عند حسن ظنك، لقد ابتعدت عن نفسي اكثر مما تظن بكثير، لماذا تتجاهل كوني مجموعة متناقضات؟

ـ انت هكذا يا صديقي لا لأنك تبتعد عن نفسك، بل لأنك تهرب منها!

وكانت فترة صمت، أحاطت عالم كل منا بسياج شفاف، نحتمي به من استحالة التعبير الكامل لحقيقة نفوسنا ونظرتنا الى الحياة. وأخذت أرمق ابراهيم بشيء من الغبطة لأن مثله العليا ليست منفصلة عن واقع الحياة التي يحياها، ولعلي كنت أغبطه اكثر على الباب المفتوح بينه وبين زوجته ليزا، اذ ظل زواجهما نضراً حياً لم يفتر من تأثير مشاكل الزواج ورتابته. وأيقظني ابراهيم من تأملاتي قائلاً:

ـ تصور، لقد أدركنا الصباح دون أن نحس بالوقت. سأنادي ليزا لنتناول القهوة معاً.

وقبل أن أجيبه، أتانا صوت ليزا الناعم الهادىء:

ـ ها هي ليزا، وها هي القهوة.

وتطلع اليها زوجها بلهفة:

ـ هل أيقظناك بصراخنا؟

وابتسمت بحنان والتفتت الي، وقد تهدل شعرها الأشقر على وجهها الرقيق:

ـ يا كمال، يا ايها المتمرد العجيب، أهكذا تفعل بي؟

يطول غيابك فيجعلني أشتاق اليك الى حد ان اغفر زيارتك في أغرب الأوقات؟

فأجبت:

ـ أنت رائعة يا ليزا، ليست هناك زوجة في العالم تتحمل صديقاً مثلي! انا ما زلت صديقك اليس كذلك؟

ـ أنت دوماً صديقي، ولكنَ الا تظن أنك تستغل مودتي لك، فتغيب وتغيب وتحرمني لذة صحبتك؟

ـ إنها أيام صعبة يا ليزا، ويقيني أنك تقدرين ظروفي.

ـ لو أني لا أقدر ظروفك لما وجدتني على هذا القدر من الشوق اليك، وبهذه الفرحة لوجودك!

ـ ولكن طمئنيني، أما زلت تقبليني بآرائي التي تختلف عن «دون كيشوتيات» ابراهيم؟

ـ ما زلت أقبلك يا كمال لأنكما في النهاية تلتقيان، وهل عدتما الى حشكما الازلي عن الانسان وفرديته؟

ـ وهل يترك ابراهيم احداً دون أن يحاضره بهذا الموضوع؟

ـ تريد أن تقول إنك لا توافقه؟

ـ سأعترف يا ليزا أن حديث ابراهيم ذكرني بحادثة جرت لي في باريس في الصيف الماضي.

ـ أهي إحدى مغامراتك النسائية؟

ـ كلا ، كلا، إنها حادثة من نوع آخر تماماً. ما زلت أذكر أنها كانت امسية ممطرة، ولا أدري كيف خطر لي أن استقل المترو، وفيه وقفت مع عشرات الناس، رجال ونساء يتشابهون، أشكالهم متقاربة وسحناتهم تعكس معاني واحدة. واذكر أني عندما نزلت في احدى المحطات كانت الساعة السادسة والنصف. وخرجت مع مئات غيري من جوف الأرض الى فوق، الى ساحة الاوبرا، ووجدت نفسي أسير مع هذه المئات، وكأني نعجة في وسط قطيع كبير من الغنم، تساق الى المرعى، او الى المسلخ. ولا تتصوري كم شعرت بضآلتي في تلك اللحظة، وكأني ذبابة أو مجرد نقطة في كتاب سميك. وانتابني ضيق شديد، وخيل الي أن الوجوه التي تحيطني سوف تمحو ملامحي وتمتص شخصيتي فتذوب جميعاً في كيان واحد، واكون أنا واحداً من اولئك العائدين الى منازلهم. وتضاعف حجم المترو في مخيلتي حتى بات اخطبوطاً يريد أن يبتلعني. عندها هرعت الى أول تاكسي وذهبت الى الحي اللاتيني.

وابتسم ابراهيم بخبث، وتضايقت عندما رأيت دموعاً تتلألأ في عيني ليزا:

ـ ومتى تهرب من الاخطبوط الذي تعيش فيه وتقضي سهرة معنا، الم تشتق الى سماع الموسيقى الكلاسيكية.

ـ أنا بشوق اليكما، والى الموسيقى، والى مشاهدة لوحاتك الجديدة.

ـ آه! لدي واحدة رائعة سوف تعجبك حتماً. هل تأتي قريباً؟

ـ قريباً، قريباً أعدك بذلك.

وبقيت معهما برهة غير قصيرة، وعندما تركت بيتهم وتطلعت الى ساعتي كانت قد قاربت التاسعة، فأدركت اني قضيت خمس ساعات كاملة طوتها لجة الحديث الذي كنا غارقين فيه، دون أن يشعر أحدنا بالتعب. وتذكرت أيام التلمذة، حين كنا أنا وابراهيم نقضي ساعات طوال مشياً على الأقدام في أحاديث مماثلة مشابهة. وعبرت السنون وقفزت، وظل هو تلك النفس الانسانية المثالية، بينما تخليت أنا عن الكثير من رغباتي. وابتعدت عن جوهري وحقيقتي، لأن المجتمع، ذلك الذي كان ابراهيم يتحدث عنه، شاء أن ينعت ابي بغير ما يستحق، وحكم عليه بميزان ليست له مقاييس، وحصر في إطار قصير النظر، قيمه بما لديه من نعوت، وفسر نزاهته وعمقه واخلاصه بالأسلوب الذي يفهم هو تلك المثل. فأمسى هو الخائن، لأنه لم يفعل ما هو متعارف عليه، ورفض التعاون مع زمرة السياسيين الذين أتوا بالاستقلال في الوقت الذي كان الناس يتهافتون على الحكم. لقد أرادوه أن يقبل الحكم فيرمي بنفسه في اتون يخلق منه لصاً وخائناً.

غير أن أبي كان قد رأى ذلك آتياً، وعرف مسبقاً أن أي عمل إيجابي مستقيم في تلك الظروف، أمر مستحيل. ولم يشأ أن يقبل بالحكم ثم يستقيل بعد ذلك بشهور، ليترك البلاد ومشاكلها من بعده في ظروف أشد حرجاً ودقة، فاختار أن يتنحى منذ البداية. أما الذين قبلوا بالمنصب بعد أن رفضه هو، فماذا جرى لهم، وماذا يقول الناس عنهم اليوم؟ لصوص

وخونة ! أما هو، البطل، فهو لا يزال ايضاً في نظرهم خائناً لأنه برأيهم قد تخلى عن واجبه ورفض أن ينقذ البلاد، وامتثل لأوامر دولة اجنبية ! أي دولة اجنبية هذه التي كانت رغبتها في أي وقت من الاوقات أن تتقدم دولة عربية؟ وأي دولة اجنبية تلك التي تريد أن لا يكون لبنان سوى ممر ومقر لخططها ومؤامراتها في الدول المجاورة؟ وأي دولة اجنبية بل اين هي الشخصية او المجموعة الوطنية التي تريد ان تعمل من أجل ان يلعب لبنان دوره الحقيقي؟

وها هم قادة البلاد يجرفونها رويداً رويداً الى هاوية لا تحمد عقباها. لقد صدق حدسي عندما فطنت الى وجود شيء جديد في الأفق، وإلا لما تجرأ فؤاد نادر أن يحاول شراء انطون كما يشتري لزوجته عقداً من الماس. لقد كاد هذا الشاب الطيب أن يقع في الفخ، لولا أني قصدت خليل بك وعرفت منه أن السبق الصحفي الموعود هو ان «الرئيس» ينتوي أن يعبر علناً عن استهزائه بحياد البلد!

كم يؤكد لي خليل بك صحة خطتي في الحياة، ألم يصمد هو طيلة هذه السنين، ألم يصمد في وجه العمل السياسي؟

لقد نأى وابتعد من طريقه لشدة قرفه ولحرصه على المحافظة على اسمه نظيفاً حتى قبل انسحاب ابي، وظل هناك في قلب الجبل متنسكاً عالماً يقرأ ويؤلف، وفي الوقت نفسه يدرس عن كثب كل ما يحدث في المنطقة. إنه في هذا العصر لأسطورة! ولو كف القوم عن سخريتهم من تنسكه، أو عجزه، كما يكادون أن يقولوا، لأدركوا أنه يكاد يكون أقوى شخصية في البلاد، يتابع كل اجتماع يتم، ويطلع على كل خطوة، ويعرف بكل جملة تقال وبأي كلمة تهمس. ولقد ظل خليل بك منذ وفاة والدي معلمي الأكبر، أقصده كلما أردت أن أبحث مشكلة

جوهرية، وكلما أقدمت على خطوة جديدة.

وفي تلك الفترة التي كنت اشكو فيها من نوبة الدوار اللعينة، ذهبت اليه اتأرجح قرفاً من نفسي واتخبط خوفاً عليها، وعدت من لدنه رجلاً سلياً. ان الحديث معه دواء شاف للغثيان الذي يصيبني من حين الى حين، ووجودي معه يمتص القذارة التي تلطخني، وكأنه المرآة الصافية الناصعة لإيماني وهدفي في الحياة. وتذكرته عندما كنت افكر بقضية الرجل الذي أنتوي الدفاع عنه، تذكرته وتساءلت عما قد يكون رأيه، وشعرت بالارتياح عندما استنتجت موافقته، إلا أن ذلك لم يكفني، كنت أريد أن ابحث في الامر بصوت عال، وكأني إذا سمعت ماذا أقول، أرى موقفي وقراري اكثر وضوحاً وتفصيلاً، فلم اتردد في الاتصال بإبراهيم وان كانت الساعة الرابعة صباحاً. وقال لي ابراهيم اني مجنون! أأنا المجنون ام هو الذي تخلى عن امتلاك مصنع والده وتركه لأبناء اعمامه لأنه أراد أن يعيش مثله العليا كلها بلا زيف؟

لا أدري ماذا فعلت به باريس، إنها على أي حال فعلت ما لم تفعله في غيره من الشبان الذين قصدوها للدراسة. ومنذ أن اتخذ ابراهيم ذلك القرار لم أسمعه يتذمر مطلقاً من عمله كمهندس كهربائي في مصنع غير مصنع أبيه. أما زوجته ليزا وهي الرسامة الفنانة ـ الرقيقة، فقد كنت أنشد وجودها دوماً وأرى فيها الوجدان الصافي والروح الشفافة، كنت أقضي معها أمتع الأوقات في جنة منزلها الصغير الأنيق. كتلك الجنة التي قضيت فيها نهاراً كاملاً، في جبل ناء بعيد عن صخب المدينة وضجيجها. لقد كنت مدعواً لقضاء يوم أحد عند معارف بعيدين عن الوسط السياسي، وهناك بين شقائق النعمان ورائحة الصنوبر، أطل علي وجه جاكلين!

كنت اعرف أني سألقاها هناك، وفرحت بتلك المناسبة التي جمعتنا بعيداً عن وجوه المجتمع المألوفة. وانتحيت بها زاوية ووجدت نفسي ضائعاً في وجهها وهي تتحدث بهدوء عن موسيقى براهمز. آخر مرة سمعت فيها براهمز كانت في منزل ابراهيم، وكانت السيمفونية الثالثة. وخيل إليّ أن جاكلين تشبه السيمفونية الثالثة، ففي شخصيتها نفس الرقة والكآبة، وفي روحها تتجلى ذات العواطف المختبئة وراء عينيها اللتين تشعان بريقاً يدغدغني ويعبث بحواسي. الا انها ذكية تلك المرأة وحساسة، وهي تتمتع بأنوثة خالصة صافية تتدفق منها ببساطة وبراءة.

قالت لي جاكلين:

ـ عمَّ تفتش وأنت تحدق بوجهي هكذا؟

فابتسمت وتذكرت المرة الأولى التي التقيتها بها. كان ذلك بعد عودتها من باريس بشهر أو شهرين، وعندما عرّفوني بها لم اكن انتظر أن اقابل سوى نمط من سائر سيدات مجتمعنا، فاذا بي افاجأ بعينيها.. عيناها هما اللتان افصحتا عن اهتمام جدّي وتفاعل حقيقيين بالأمور الجدية التي كانت تبحث بحضورها، ونفذ بصري الى اعماقها حينذاك، وفهمت انها خائفة في هذا المجتمع، وأيقنت ان لديها جوهراً جديراً بالمعرفة.

وعادت تسأل:

ـ لم تجبني... ماذا ترى في وجهي؟

كنت قد شعرت بميل نحوها منذ المرة الأولى، وإن كنا لم نتبادل سوى عبارات المجاملة. وفي مناسبة أخرى رقصت معها وشعرت بحرارة غريبة تتدفق منها، حرارة شفافة رقيقة هزت شيئاً في جوفي، اعرف انه لم

يكن غرائزي، وخيل الي انها سوف تذوب بين يدي.

ظلت صامتة بجانبي تتأملني ببراءة، وتنتظر جوابي بلهفة لم تحاول أن تسترها، فقلت لها:

ـ انت المرأة التي تهتم بالمطالعات الفلسفية والنفسية، الا تعرفين عمّ يفتش الرجل عندما يتأمل وجه امرأة؟

ـ ليست مطالعتي هي التي تدفعني الى تفهم الناس، بقدر ما هي انسانيتي التي تحرك مقدرتي على تفهمهم.

ولم تجبني على سؤالي، لعلها هي الأخرى تتساءل، عمّ أكون أنا بالنسبة لها. ورددت ابتسامتها، وكان بودي ان التقط يدها وأضمها الى صدري ثم الى شفتي، نفس الرغبة التي انتابتني منذ شهر مضى عندما عادت معي الى بيتها من حفلة لم يكن زوجها قد حضرها، وكنا قد خضنا يومها في حديث عميق جدي عن اوضاع البلاد ومشاكلها.

وسألتني من جديد:

ـ لم تخبرني رأيك في مشاكلنا مع جيراننا العرب؟

ـ لن أخبرك الا اذا سمحت لي ان اوصلك الى البيت!

فضحكت بفرح وعرفت انها تذكرت المرة الماضية.

فقلت لها:

ـ أما زلت بعيدة عن مشاكلنا؟

ـ وهل كنت أستخف بتلك الأمور في المرة الماضية عندما بحثناها؟

فضحكت وقلت:

ـ ولكني لا أدري الى اي حد كنت مقتنعة بوجهة نظري .

ـ إني على الأقل لم أعد أتابعها بعدم المبالاة التي كانت ترافقني في الماضي .

وترددت قليلاً وقالت :

ـ ولكن . . ثم سكتت .

ـ ولكن ماذا؟

وللمرة الثانية تمنيت أن أحتضنها لأعبر لها عن احاسيسي ، ولأفصح عن اعجابي، اعجابي المتناهي بها وهي تتحدث بسذاجة ممزوجة بالذكاء ، وكأن كل شيء تقوله قد اكتشفته لتوها .

فضحكت وقالت :

ـ لو كنت رجلاً ، لما تحدثت معي هكذا!

ـ وكيف أتحدث معك؟

ـ تتحدث وكأنك تلهو، وكأن وجودك مع امرأة تريد أن تنظر الى الأمور بجدية ، وتحاول أن تجد لها محلاً ودوراً في المجتمع الذي تعيشه ، أمر مسل . أنا لا أحب ان تتسلى معي! فأجبتها بجدية :

ـ أنا لا أتسلى ابداً ، ولا أظن أن اهتمامك غير جدي .

ـ إذن أخبرني، أين هي رغباتك وأين هو طموحك في أن يصبح لبنان محايداً يلعب دور الوسيط ، دور الأخ الأصغر، المفتوح الصدر لمنازعات العرب؟

ـ طموحي هذا ما زال هدفي الرئيسي .

ـ ألم تقرأ التصريح عن سخافة الحياد؟

ـ نعم قرأته.

ـ تقول نعم هكذا ببساطة، وكأن الذي قاله اجنبي معتوه!

لماذا لا تفعل شيئاً، لماذا لا تصرح برأيك وتتخذ موقفاً، ألستَ من رجال البلاد البارزين؟

ـ ولكني لست رجلاً سياسياً!

ـ أنت تقول هذا؟ أنت الذي وصف العمل السياسي في هذه المرحلة بأنه عمل وطني، يحق للناس أجمعين، مهما كانت مهنتهم أن يتفاعلوا معه وينشطوا له؟!

كانت تتحدث باندفاع هزني بقدر ما هزتني أنوثتها ورقتها، وراعني أن تكون وهي تكاد لا تعرفني أن تتكلم عني بذاك الاخلاص والايمان، بينما الذين يعرفون طاقتي تمام المعرفة، والذين يلمون بفعاليتي يتجاهلون امكانية عملي السياسي. وقلت لها:

ـ أنت لا تنسين شيئاً.

ـ وأنت، هل تريدني أن أنسى؟

قالت ذلك وكأن وجودها كله بالنسبة لي بات على بساط البحث، وأتى سؤالها دون أن أكون قد توقعته فجفلت، ولا أدري كيف احست بجفلي اذ سألتني:

ـ لماذا جفلت هكذا؟ هل أنا رجل سياسي لكي تظن أني أخفي مأربا شخصياً من وراء كلامي؟ أنا أحدثك هكذا ببساطة لأني أرى فيك الكفاءة وحسب.

ـ أنا لم أقصد ذلك مطلقاً، ولم يخطر ببالي أبداً أي شيء تقولين، كل ما في الأمر هو أنني فوجئت.. فوجئت بتفكيرك بي كرجل سياسة.

ـ وكأن الفكرة لم تراودك!

ـ كلا، مطلقاً.

ـ هذا مستحيل، لا بد أنك تكذب على نفسك وتهرب منها. أنت رجل اليس كذلك؟.

وضحكت:

ـ طبعاً أنا رجل.

ـ هل تستطيع أن تخبرني كيف أنت رجل، ما الذي يجعلك تشعر أنك رجل، وما هو الشيء الذي تفعله لتثبت لنفسك انك رجل؟

ـ لا أفهم ماذا تقصدين؟

ـ سأطرح عليك السؤال بطريقة أخرى، ما هو الشيء الذي تفعله لتحقق وجودك؟

ـ أنا محام واظن أني نجحت في مهنتي.

ـ أعرف، أعرف أنك محام، وسمعت عن القضية التي قررت أن تترافع فيها، وهذا شيء عظيم. انها خطوة في منتهى الشجاعة. ولكن هذا ليس أنت، لا يمكن أن تكون هذا وحسب.

ـ ماذا تريدينني أن أكون أكثر من هذا؟

ـ أنا؟ ما هو شأني بحياتك، أنت الذي يجب أن تقرر، أنت الذي تعرف. ولا تطلب مني أن أصدق بأنك أنت، ذلك الرجل الذي هزني

بحديثه السياسي انما يكتفي بالمحاماة كهدف لحياته!

ـ كنت أفسر لك الأوضاع وحسب.

ـ لقد سمعت غيرك يتحدث عن الأوضاع ولكن حين تتكلم أنت. فإنك تنفذ الى الأعماق، حتى وجهات نظرك ليست مثل الآخرين، وعندما تعبر عنها يخيل إليّ انك تتكلم عن شيء شخصي، وكأنك تحكي عن بيتك أو والدك، أو شيء من هذا القبيل!

وجفلت مرة أخرى، فقالت:

ـ ما بالك تجفل هكذا كلما نطقت حرفاً؟ قل لي الآن، قل ماذا تفعل من أجل بلادك؟

ـ ألا تعتبرين دفاعي عن الحق له دور فعال في بناء الوطن؟

ـ انه دور مهم، ولكنه لا يكفيك أنت.

وتأثرت مرة أخرى لاندفاعها، واعتورتني نفس الرغبة في أن أحتضنها، لأني لن أستطيع أن أعبر لها عما أحس الا اذا احتوتها ذراعاي، فابتسمت وانا أحاول ان أخفي اهتمامي، وشعرت بها تغضب وكأنها على وشك أن تثور بوجه موقفي اللامبالي. ونظرت في عينيها وأنا أكاد أضيع في وجهها، وسمعت نفسي أقول لها:

ـ ولكن اذا أردت أن أعمل في السياسة، فثقي أني سأعمل! نطقت جملتي دون ان اكون قد قررت ذلك، فجاء كلامي نصف ساخر، نصف جاد، وذهلت هي واحتارت فيما تجيب، الا انها عرفت اني اريد أن أقول لها شيئاً. لها هي دون أي انسان آخر، في الدنيا، وأيقنت اني أريد ان أعبر لها عن شيء ما، لا اعرفه ولا تعرفه هي. وقالت بتردد:

ـ يخيل إليّ انك ترفض أن تكون ايجابياً معي .

ونفذت جملتها الى صميم وجداني وأنا مبهور بحدسها القوي، وأجبتها بإخلاص شديد:

ـ وهل استطيع أن أكون اكثر إيجابية معك يا جاكلين؟

وتلعثمت قليلاً لأن حدسها كان ينبؤها ان درب علاقتنا معاً يعتمد الى حد كبير على جوابها . وقالت:

ـ ولم لا؟

ـ كيف؟

ـ تستطيع أن تتكلم بصراحة اكثر، تثق بي أكثر.

ورفعت بصرها الي . ثم قالت :

ـ لا تعبس هكذا. . . إنك تستطيع أيضاً أن تضحك أكثر، وتصدق أني لا أريد من وراء كلامي سوى مصلحتك أنت .

ولم احر جواباً ولاذت هي بالسكوت. وبالصمت كنا نحاول أن نهرب من لقاء لعله اعترض سبيلنا قبل الأوان. . . وشعرنا بحرج شديد لا أدري كيف كنا سنخرج منه لو لم تنقذنا منه جماعة من الضيوف مرّت بنا فتفرقنا بين الآخرين طيلة الوقت الباقي من ذلك اليوم. أما انا فقد ظللت أشعر بأن قوة ما تحتم علي الابتعاد عنها، لأني كنت أحارب قوة أخرى لا أدري من أين هبطت علي، إلا أنها كانت تدفعني وتحركني كيفما أدرت وجهي. . . الى ناحيتها! كان يجب ان أبتعد عنها لأني كنت اشعر برغبة جامحة في أن أكون بقربها!

وأويت الى فراشي في تلك الليلة وقد برزت أمامي ناحية من نواحي

التناقض في شخصيتي، اذ لم يخطر ببالي مطلقاً أني سوف ألتقي بمثل نوعها من النساء، ولاح طيفها في غرفة نومي للمرة الأولى وأنا أتذكر ابتسامتها عندما ودعتها وقلت :

ـ الى لقاء قريب .

فأجابت :

ـ أرجو لك التوفيق في قضيتك!

وبات طيفها يلاحقني في كل مرة أجلس فيها لدراسة القضية، وكلما وجدت حجة جديدة أو دليلاً مهماً يساعدني على تبرئة الرجل الذي قررت أن ادافع عنه . ومر الوقت وأنا في ذات الراحة النفسية التي ترافقني كلما أقدمت على خطوة جديدة . وكانت تلك القضية تحدياً طالما فتشت عنه أتسلل من خلاله الى رؤوس كرأس فؤاد نادر لأنهال عليها تحطيماً .

ويوم أخبرتني نجلا أن زوجها يستعر غضباً وغيظاً لأني قبلت المرافعة، شعرت اني قد نلت مكافأتي، وتضاعفت حرارة شوقي الى أن أرمي نفسي في العمل بنفس شراسة تشبثي بالحياة نفسها . وابتسمت معي نجلا ابتسامة هادئة صفراء ونحن نسخر من زوجها لأنه قال إني أبحث دوماً عن الكسب المثير الذي يحرك رجل الشارع . . وأترك القضايا الرزينة التي يجب ان أحصر اهتمامي بها للمحافظة على المستوى اللائق بمكانتي .

٤

«الخلق هو عملية عذاب، وهو حالة يشعر فيها الخالق بالتمزق، غير انها أقرب حالات الانسان الى الحياة، بل هي الحياة نفسها. وليس هنالك من شعور معذب مثل منع الانسان عن العطاء وعن التعبير، والتعبير هو الحياة، هو الدليل على أن الانسان يحيا ويحس. إنه يحس في جوفه أشياء تتحرك وتتقلب، ويختلط عليه الأمر فلا يعود يدري أهي أشياء أم مشاعر؟ ولكن في اللحظة التي تندفع فيها مشاعره الى الخارج، ويراها بوضوح في القالب الذي اختاره لها، فإنه يحس بالراحة الكبرى، وتكون عملية الخلق قد تمت ويكون هو قد مارس الحياة.»

لقد وجدت هذا المقطع مكتوباً في آخر صفحة من كتاب كنت أطالعه، ونسيت تماماً من أين أتيت بتلك الفكرة. انها تذكرني بأول لقاء لي مع ابراهيم وليزا، وكنت قد تعرفت إليهما عند معارف لنا فرنسيين كانوا قد جاؤوا في زيارة الى لبنان. وتشعب بنا الحديث خلال تلك الجلسة وأخذ ابراهيم يتكلم عن الخلق وعن حرية الانسان عندما يبحث عن وسيلة للتعبير. وسألني عن الكتب التي أطالعها، ثم اضاف الى مجموعتي أسماء كتب وكتاب جدد. أما زوجته فقد لفتت نظري ببساطتها، في حركاتها في ملبسها، وكانت تتابع حديث زوجها بشغف وتداعبه من حين الى حين قائلة:

ـ لماذا تفرض على الناس وجهة نظرك؟

ـ ووجدت نفسي متلبسة في تأملها اكثر من مرة، كان هنالك شيء

ما في وجهها يدعو الى الاطمئنان والراحة وربما للاستئناس. ولا أدري لماذا تذكرت الأمل الذي حاول أن يعطيني اياه طبيبي عندما قصدته منذ شهر مضى، فقال اني لم ألتق بعد بالناس الطيبين في هذا البلد. وبادرت في اليوم التالي الى دعوتها الى العشاء مع أصدقائنا الفرنسيين، وكانت المفاجأة الثانية، صداقتها الوثيقة بكمال! ولقد اكتشفت ذلك بطريق الصدفة عندما كنا نتبادل الآراء عن الأوضاع السياسية، وكان ابراهيم يقول انه غير مرتاح للحالة القلقة التي تمر بها البلاد، ويبين الخطر الجسيم الذي ينتظرنا اذا كانت الحكومة ستبالغ في الانحياز الى جهة عربية، دون أخرى.

ـ هل افهم أنك من دعاة القومية والوحدة.. إلى آخر هذه المفاهيم الجديدة؟

فأجاب:

ـ أنا شخصياً لم أعد أؤمن بالقوميات بمفهومها المتعارف عليه اليوم. اني اكثر ايماناً بالمفاهيم الانسانية التي تنتج عن تفاعل الانسان بقوميته.

فقلت له:

ـ ولكنك لا تستطيع أن تتجاهل أهمية الشعور القومي، فلولاه لما اندفع الشعب ولما تحرك ولما عرف الوعي. ولولا روعة الشعور القومي لما تفهمنا معنى الشعور الانساني.

ـ هذا صحيح الا اني أصبحت أتوجس من اتجاه القوميات في هذا العصر، اذ يندفع زعماؤها الى حصر شعوبهم في نطاقات ضيقة، تحد من تفاعلهم مع الحضارات الأخرى.

وأجبت:

ـ ولكن هذه مجرد مرحلة من مراحل تطور أي بلد بعد استقلاله .

ـ صحيح ، ولكن العرب لم يتفقوا بعد على مفهوم وخطة وسياسة واحدة . ولبنان يتخبط وسط كل هذا . انه من المؤسف أن تنصب طاقته في ثورة لا هدف لها سوى التنفيس .

ـ إن ما تقوله رائع ، عظيم ، أنا أوافقك الرأي وأتمنى ان تُلتقط هذه الطاقة الثورية وتربط بهدف ايجابي يرمي الى التقدم والتطور الفعلي ، فتصبح لنا قضايا جدية .

وضحك ابراهيم ثم قال :

ـ أنت تذكريني بآراء صديق لي ، لعلك أنت الأخرى مؤمنة ببطلان هذا العهد؟

وانبرى زوجي بغضب مستتر:

ـ لا ارى كيف يمكن أن لا تؤمن زوجتي بهذا العهد ، ألا يكفيه الرئيس كموجه صالح ايجابي للبنان؟

قال ابراهيم :

ـ ولكن الرئيس ارتبط وتطرف ، ولم يعد يمثل وجهة نظر الطرفين في البلاد .

ـ هذه مرحلة وسوف تمر.

قلت أنا :

ـ كل ما يهمني انا هو أن يصبح لبنان المنبر العلمي المخلص لكافة التجارب التي تحدث في البلدان العربية ، ثم يلعب هو دور الوسيط السياسي والمغربل العقائدي ـ الفلسفي . وقبل كل هذا ، أنا اتمنى ان

تتبدل الأوضاع الداخلية، فتصبح لنا قضايا جدية.

فقال ابراهيم:

ـ انا، انا أشارك رغبتك في أن يصبح لبنان المرآة الصافية لأحداث الشرق الأوسط. غير اني في الوقت الحاضر أراه يبتعد عن هذا الدور.

وانبرى زوجي يقول:

ـ حديثكما وآمالكما شيقة وجميلة، ولكني لا أرى في البلاد تلك الطاقة التي تستطيع أن تحمي الاتجاه الحضاري الذي تتحدثون عنه.

أجابه ابراهيم:

ـ أن مثل هذه الطاقة موجودة يا سيدي. انها بحاجة إلى بعض التنظيم، ولكن بذورها واضحة ملموسة في كثير من الأوساط والأشخاص.

ـ أين هم هؤلاء الأشخاص، وأين تلك الفكرة، إنها خيال وأمل في أذهان بعض المثقفين وحسب.

ـ كلا يا سيدي، أنت تبالغ في تشاؤمك، الفكرة موجودة بقوة، كل ما يلزمها هو الشخص المناسب لتنفيذها كسياسة لهذه البلاد.

كان ابراهيم يتكلم، وكنت أنا أفكر بكمال، لأن الوصف لم يكن ليلائم أحداً ملاءمته تلك الشخصية المناسبة، وكدت ألفظ اسمه، غير أن ابراهيم سبقني الى ذلك، بل فوجئت به يسأل زوجي:

ـ هل تعرف سعادتك المحامي الشهير الاستاذ كمال؟

ـ لقد قابلته عدة مرات، ويبدو أنه شاب ناجح.

وسكت زوجي برهة ثم قال:

ـ لقد كنت أعرف والده، رحمه الله.

وسكت الرجلان، وتبادلا نظرة ذات معنى وشعرت أن لسكوتهما مغزى، وكأن كلا منهما ينتظر من الآخر كلمة.

وظل زوجي يتمتم.

ـ نعم كنت اعرف والده رحمه الله.

فاندفعت اسأل:

ـ أحقاً ما يقول، أنت صحيح كنت تعرفه ولم تخبرني؟

ولكن في كل مرة تتحدث فيها مع كمال لا يبدو أن معرفتكما ببعض قديمة.

ـ لا أظن أن كمالاً نفسه يعرف علاقتي بوالده.. نعم يا أستاذ ابراهيم، اني أتابع تفكيرك وفهمت مقصدك. لقد كان والد كمال صاحب الفكرة الأولى في دور لبنان الحضاري. ولكنه للأسف تخاذل في الوقت الذي كان مهيأ له أن يعمل. ولو لم يتراجع هو آنذاك لكنا اليوم قد خطونا نحو هذا الهدف خطوة كبيرة.

ـ وهل كنت تريد أن يحرق الرجل نفسه، ويتلطخ بالتهم الباطلة؟ كان من المستحيل أن يشترك في الحكم مع العناصر الحاكمة في ذلك الحين، وكان من المستحيل أن يصبح رئيس وزارة للبلاد الا رجل متطرف، وهو لم يكن يؤمن بالتطرف، ولا بالتعاون مع زمرة الحاكمين في ذلك الوقت.

ـ اذن لقد كان رجلاً انانياً، ورجل الدولة يجب أن لا يفكر بنفسه،

ويجب أن لا يهتم بما يقال عنه اذا أراد أن يحقق هدفاً سياسياً.

ـ أنت تقول إنه أناني، هذه لفتة كريمة من سعادتكم.

فقام زوجي من محله واقترب من ابراهيم قائلاً:

ـ يا بني، لعل الاستاذ كمال صديقك حتى انفعلت هكذا. وأنا أعلم أن غيري يقولون عن أبيه خائن لأنه رفض التعاون مع غيره من العناصر. ولكن هكذا هي الحياة، ورجل السياسة يجب أن يسبق عصره دوماً.

فاندفعت أنا مرة أخرى وقلت:

ـ هذا الرجل، ألم يسبق عصره عندما تنبأ بمصير الذين رفض أن يتعاون معهم؟

فأجاب زوجي:

ـ ولكن نظرته لم تكن شاملة. ما زلت أذكر الرسالة التي ارسلتها له ألومه فيها على انسحابه من المعترك السياسي. وكان من المفترض أن يأتي الى باريس فنلتقي هناك، ولكن المنية وافته.

وانتهى الحديث وأنا على رغبة في استزادة المعلومات عن والد كمال. كنت دوماً اسمع عنه متناقضات عجيبة، ولكن الظروف لم تسمح لي أن استوضحها، وكان بودي ان نسترسل بالموضوع، الا أننا انتقلنا من غرفة الطعام الى الصالون. وفي الصالون جلست ليزا على مقربة مني فقلت لها:

ـ غريبة كلها الظروف التي تجمع بين الناس، قبل يومين لم نكن نعرف بعضنا البعض واليوم أشعر بأننا بتنا أصدقاء!

ـ هذا ما كنت أفكر به، وأنت تتناقشين مع ابراهيم. الحقيقة اننا لا نختلط كثيراً بالناس ولكن بودي أن تأتيا انت وزوجك لزيارتنا، فنستمع الى الموسيقى الكلاسيكية. أنت تحبينها أليس كذلك؟

ـ أنا أعشق الموسيقى يا ليزا، أستطيع أن أناديك ليزا بدون ألقاب، أليس كذلك؟

ـ طبعاً، طبعاً يا جاكلين، ولا يمكنك أن تتصوري كم سعدت بمعرفتك. لقد زدتني تحمساً لأن أجعلك تأتين لزيارتي كي أُطلعَك على اللوحات التي أرسمها.

ـ أنت ترسمين؟ هذا عظيم، عظيم جداً!

ـ أجل انا أرسم، ولن أسألك اذا كنت تحبين الرسم لأني أرى في بيتك لوحات يبدو واضحاً أنها منتقاة بذوق رفيع.

ـ لقد اشتريت معظمها من باريس.

ـ إذن اتفقنا، سأتصل بك قريباً. وسوف أدعو كمالاً ما دمت تعرفينه وتعجبين بأفكاره.

وفوجئت باستنتاجها فسألتها:

ـ وكيف علمت أني معجبة بآرائه؟

ـ لقد كنت تتحدثين مثله تقريباً!

ـ صحيح؟ لم أنتبه الى نفسي، لا شك أني معجبة بآرائه وطالما تبادلت الأحاديث السياسية معه، بل أكثر من هذا، لولاه لما عرفت بأي شيء أو موضوع يستحق الاهتمام في بلدي، بعد أن كنت بعيدة عنه.

ـ كمال رجل عظيم، عظيم جداً، وقلبي معه في هذا الوقت الذي ينهال عليه الناس انتقاداً لأنه تبنى قضية الرجل. . .

وبعد وداع الضيوف صعدت الى غرفتي وأنا افكر بكمال. ليزا كانت على حق لأن الناس فعلاً كانوا ينتقدون كمالاً. لم أدخل صالوناً خلال هذا الشهر الا وسمعتهم يتحدثون عن القضية وعن كمال الذي قبل أن يدافع عن رجل وحش، اعتدى على زوجة صاحب صالة القمار التي يحرسها ثم قتلها. وكانوا يتساءلون عن السبب الذي دفعه الى قبول تولي القضية. وكانت الاستنتاجات متناقضة مختلفة، فمنهم من كان يقول انه يريد أن يكسب عطف أولاد الأزقة واللصوص الذين حرقوا سمعة والده عندما خيب ظن الشارع، ومنهم من قال انه يطمع بمبلغ طائل من المال من وراء القضية، وقالوا أيضاً انه يريد أن يحطم صاحب صالة القمار إرضاء لصديقه فؤاد نادر، وذهب بعضهم الى أبعد من ذلك فقالوا إنه كان على علاقة بالزوجة المقتولة، وصده زوجها فهو يريد أن ينتقم منه. وكان الطرف الآخر من الناس المعجبين بكمال والمؤمنين بنزاهته يؤكدون ان لديه دليلاً على براءة الرجل، والا لما اتخذ هذه الخطوة الخطيرة، ورضي أن يدافع عنه، لا سيما وان صاحب صالة القمار رجل ذو نفوذ، وعلى اتصال متين بكبار شخصيات البلاد. وكنت أنا أنبري للدفاع عنه في كل مناسبة، وطالما جررت نفسي الى مشادات عنيفة، أسمعتني المزيد من التهم الشائنة عن كمال، حتى أن أحدهم نصحني بالابتعاد عنه، لأنه معروف بقدرته على ارضاء السيدات المتزوجات. وشكرت الظروف يومذاك، اذ لم يكن زوجي حاضراً. ولكني عندما عدت الى البيت ورويت له الحادثة ثار وغضب وطلب مني أن لا أتحدث مطلقاً عن كمال.

وصعدت الى غرفتي تلك الليلة وأنا أشعر بوحدة غريبة. شعرت

بعالم كبير مخيف يفرق بيني وبين كمال. وأمسى غموض شخصيته ملموساً لدي، واعتورني خوف مبهم كلما أمعنت التفكير به. فانتهى بي الأمر الى ان أسخر من اندفاعي هكذا للدفاع عنه ومن ثم التفكير به، لأني في الواقع لا اعرف من حقيقته شيئاً، ولا يربطني به رابط.. أم لعلني آمنت به لأني كنت أرى شيئاً ما يلمع في عينيه، وهي تبحث عن «ماذا في وجهي»؟ عن أي شيء يبحث كمال كلما نظر في وجهي؟ إنه احساس خفي مبهم يرافقني كلما فكرت بكمال. وكمال؟ في هذه الظروف التي تحيطه، خلال هذه الفترة التي لم أنفك يوماً واحداً أفكر به. أين هو؟

ظللت آمل أن ألتقي به عند ليزا، ولكننا دعينا الى منزلها ذات ليلة ولم يكن كمال هناك، وأخبرونا أنه سافر الى باريس في عمل يتعلق بقضيته.

وعندما عدت الى البيت جرجرتني قدماي الى غرفتي وارتميت على سريري أنشد الراحة بعد الجهد الذي بذلته لكي ابدو مرحة بعد ما صدمت بعدم وجود كمال. لقد كنت أعلق آمالاً كبيرة على تلك الليلة، ولم تكن رغبتي في رؤيته الدافع الوحيد. كنت أريد ان أرى كيف يتصرف بين أصدقائه، وفي جو كالجو الذي تخلقه ليزا في بيتها. كنت أريد ان أعرف صدى حديث ابراهيم عنده، لعل ذلك يضع حداً للصور المتناقضة التي كونتها عن شخصيته. وقفز ذهني مباشرة الى باريس، وأنا أتساءل: أيكون هو فيها في الوقت الذي بدأت أجد هنا ما كانت تعطيني اياه؟ وهل قصد باريس من أجل قضيته، ليدافع عن لص مجرم، كما يقولون، أم أنه يقضي لياليه في المراقص وصالات القمار، بحثاً عن انتقامه للسيدة المقتولة؟ ألذلك سافر دون أن يخبرني، أم أنه حسناً

فعل اذ كان سيشد على يدي كما فعل أحدهم منذ يومين، وهو يرنو الي بابتسامة صفراء خبيثة ويسألني عن الهدية التي أريدها من باريس!

أتراه يذكرني هناك؟ ام انه يذكر عشرات أخريات معي، لعلني هواية يتسلى بها في بعض أوقات فراغه ويبحث عن ماذا.. في وجهي؟ هل يبحث عن السر الذي جعله يحس بأني لست كغيري، ليته يعلم ان ليس في وجهي سر أخفيه، بل جوف فارغ متآكل يشكو الوحدة والغربة بين ذئاب تحوم حولي وتبدي الدهشة والاستغراب كلما صددت أحدها، وهي تعوي بأذني عبارات اعجاب مقيتة!

تعثرت حيرتي بشأنه كلما طرقت أبواباً جديدة في هذا المجتمع، وتضاعفت حيرتي وأنا أتساءل، هل يعجب هو مثل غيره من الناس، وهل يستغرب أمر تلك المرأة الجميلة في الثلاثين وزوجها الوقور الذي يناهز الستين، وكيف انها لا تضاحك هذا وتغازل ذاك؟ ام انه كان يفهم المشكلة التي اضطررت ان أطرحها على نفسي، تلك المشكلة التي لم تكن قد خطرت ببالي أبداً، وهل يخامره الشك بأنوثتي كما بت أشك بها أنا؟ لقد كنت أشعر بالقرف والاشمئزاز من الأنوثة حين تعبر عنها نساء من نمط معين، فيغرقن كيانهن في فقاعات صابون، يلتوين في مشيهن، ويسيل لعابهن وتلمع عيونهن عند أول كلمة اطراء. ولم أكن استحسن اللواتي يحصرن محور حياتهن في الثياب والاطفال ومشاكل الخدم. وكنت أفضل أن استغني عن أنوثتي طالما لا يريد أحد ان يحس بوجودها من خلال روحي. وذات ليلة شعرت بهول غربتي عن هذا العالم، وأدركت مدى بعدي عن جو كمال، حين رأيت صديقه الحميم فؤاد نادر عن كثب، واستمعت اليه يتكلم من خلال أسنان صفراء تلمع خبثاً ورياء. وضحكت بسري طويلاً لسذاجتي عندما سمعت زوجة فؤاد تتكلم عن

.كمال وتقول انه «الكمال» وتخيلت كمالاً هو الآخر يضحك لسذاجتي كلما كنت احدثه عن مستقبله ووجوب ممارسته السياسة، وعندما فتحت له قلبي وأخبرته عن الفراغ الذي اعيش فيه. . لا بد انه وجدني نمطاً مسلياً من النساء. أنا الطفلة الكبيرة التي كانت تحلم بصداقة فريدة وخيل اليها ان خيوطها قد بدأت تتشابك وتتوثق!

وكنت أمسك كتابي أهرب فيه من واقعي، وفتحته ذات مرة فتوقف نظري عند الاهداء. لقد كان هدية من ابراهيم وليزا، صديقي كمال! وانتصب التناقض الذي يكتنف حياة كمال كالباب المسدود في وجهي، اذ كيف يجمع بين ابراهيم وفؤاد نادر؟ وماذا يمكن أن تجد ليزا في نجلا؟.

وتساءلت طويلاً دون جدوى فتركت كمالاً وراء الباب الموارب، ووطدت عزيمتي على أن لا أفكر به، وشكرت ابراهيم وليزا اللذين دفعا الي بذاك العالم الرائع الذي كنت أكتشفه بقراءة الكتاب. لقد كان عملاً تحليلياً عميقاً عن وحدة الانسان، وكان تعبيره من الجودة بحيث جعلني أتفاعل به الى حد جعلني أشعر وكأن حروفه أصبحت حديثاً يشاركني فيه مؤلفه، فأصل الى أعمق أفكاره، وألم بكافة خلجاته وأعيش تجاربه وكأنها تحدث لي. ولقد شعرت بنشوة عجيبة بفضل هذا التفاعل الحي، نشوة ذكرتني بنشوة الجنس لما فيها من احساس الخوف من الفرح العظيم والامتلاء المتكامل. وساقتني تلك التجربة مع الكتاب الى يقين بأني لم أعرف بعد نشوة الجنس هذه كما أني لم أعرف نشوة اللقاء الحقيقي بين الإنسان والآخر.

وكنت أجلس كل مساء في شرفة غرفتي، أستمع الى أجراس الكنيسة المجاورة، وأظل هكذا حتى تغيب الشمس، وتلفني ظلمة

الليل بحنان، ويضيع بصري في الفضاء وهو يبحث عن نجوم يناجيها، حتى ألتقي بنجمة السماء فأشعر كأني لم أخلق بعد ولم اكتمل، وأشعر بأن حياتي الحقيقية في انتظاري هناك وراء نجمة السماء. كنت أتأمل وحدتها، وأقارنها بوحدتي أنا.

لقد كنت أحسدها لأنها وجدت ما تحتمي به سواء أكان غيوماً أم هواء أم سماء . . . أما أنا فقد رميت في الدنيا رمياً. . لست في السماء ولا تلامس قدماي الأرض. ليس لدي سوى كتبي ونفسي، احتضن كتابي وأحتضن نفسي. . ونفسي سئمتها، ضجرت منها، وبت أريد أن أرى تأثيرها على غيري، اني بحاجة الى غيري لكل أحكي له عن هذا الكتاب الرائع الذي أقرؤه ولكن أين الذي يدعني أحكي له؟ اني أحكي لنفسي وكأني واحدة أخرى. . وكأني يجب أن أكون اثنين، يجب ان أكون ايضاً واحدة أخرى لكي أبدد ولو القليل الضئيل من وحدتي. .

وهكذا تذكرت كمالاً من جديد، وشعرت برغبة غير عادية في أن أراه.

وفي اليوم التالي، عندما دخلت مكتب زوجي وأخبرني ان كمالاً اتصل به ليدعونا للعشاء، خيل لي ان نجمتي الصغيرة كانت قد لبت لي رغبتي الصامتة وأخذت روحي تتفتح من سباتها الطويل، وهبت نسمة عليلة على الجو الخانق الذي كان يحتويني، ورحت اسأل زوجي بلهفة: متى عاد كمال من باريس، ومتى موعد الدعوة وأين؟ فقال ان كمالاً عاد منذ خمسة أيام وان الدعوة بعد يومين. فقلت له:

ـ ولكنك مدعو الى عشاء ديبلوماسي بعد غد، فلن نستطيع الذهاب.

ـ كلا يجب ان تذهبي انت والا أساء الأستاذ كمال فهم قصدي من عدم الذهاب.

ـ وكيف تريدني ان أذهب بمفردي؟

ـ لقد أخبرني أنه دعا الاستاذ ابراهيم فيمكنك مرافقتهما.

وتركت زوجي يطالع صحفه، وانطلقت الى غرفتي وكأني لا أستطيع أن أصدق عودته الا اذا كنت في غرفتي.. غرفتي.. لوحدي. وتمددت على سريري ورحت في اغفاءة طويلة أستعرض خلالها كل ما حدث منذ اللحظة الأولى التي التقيت فيها كمال. ولم أستفق من تأملاتي الا وقد اختلطت الحقائق التي عرفتها فيه، والاشاعات التي سمعتها عنه باللذة القصوى التي كنت أجنيها كلما التقيت به أو تحدثت معه، وكلما لمست الخيط الرفيع الذي بدأ يصل بين روحينا. وعندما خرجت من البيت بصحبة ابراهيم وليزا خيل إلي من فرط ما تشابكت وتناقضت صوره عندي بأنه بات انساناً لم أعرفه أبداً. ودخلت المطعم الذي دعانا اليه وأنا أتوجس خوفاً واتحفز تحدياته، اذا ما راودته نفسه في أن يحملني على «تسليته» بحديثي الساذج، كما كنت أفعل من قبل. غير اني حالما دخلت المكان ولمحته من بعيد جالساً مع آخرين قفز اليه قلبي، وجاهدت نفسي طيلة الفترة السابقة للعشاء كي لا أبتسم بوجهه كما كان بودي أن أبتسم.

وأخذت أتلهى بالحديث مع المدعوين الآخرين ووجدت أن الاستاذ انطوان صاحب الجريدة ليس كما قيل لي عنه عندما قابلته للمرة الأولى؛ وجدته جذاباً مثقفاً وزوجته كانت أقرب الى ليزا من أي سيدة تعرفت اليها. لم تكن من النوع الذي يشكو الفراغ، ولم يبد لي انها تملأ وقتها في

فقاعات الصابون، وهي ليست مزيفة مثل غيرها ولا تبدو غريبة عن زوجها. وسعدت بالمجموعة وارتحت الى جوارهم وشعرت انهم ينتمون الى عالمي، بعيدين عن المجتمع الذي يغربني. وجلست على المائدة قرب كمال وانا اكثر هدوءاً وروية من قبل، فتطلع الي بطريقته الخاصة، وحاولت ان أهرب بنفسي من عينيه، وأجابهه بواحدة أخرى، من الآخرين الذي خلقوا ليعيشوا في أجوائه الأخرى، الا انه فاجأني حين قال بمنتهى البساطة:

ـ لقد تذكرتك في باريس!

ـ مع انك سافرت دون ان تتصل بي.

ـ يحق لك ان تستائي، ولكن. . .

ـ ولكن ماذا. . ؟ وقبل أن تسافر؟

ـ ماذا حدث قبل أن أسافر؟

ـ لم تتصل بي.

ـ أجل لم أتصل بك ولكن هل كان بوسعي أن أفعل؟

وكان واضحاً انه يتكلم عن شيء وهو يعني شيئاً آخر.

لا أدري ما الذي دفعني الى ان امنح نفسي حق البحث عن المعرفة، معرفة ماذا يريد مني، اذ تملكتني رغبة جامحة معاكسة لما وطدت نفسي عليه منذ لحظات. ولعل اخلاصه الواضح هو الذي جعلني أجاريه فيما يرمي اليه. فأجبته على الفور:

ـ لقد اتصلت بنا لنلتقي اليوم اليس كذلك؟

فابتسم بحرج وقال:

ـ لك ملء الحق في أن تستائي مني، ولكني هكذا يا جاكلين، أنا اطلب من غيري كثيراً.

فقلت شبه ساخرة:

ـ وماذا تريد مني، انا انسانة عاطفية للغاية مثالية للغاية، وأتمتع بقسط وافر من عدم المسؤولية!

ـ هذا ما أحب.

ولم أعرف بماذا أجيبه، فأردف:

ـ لا تدهشي مني، اني مجموعة متناقضات ولا يحميني منها سوى ارادتي.. ارادتي القوية جداً!

ـ وكأني لا أعرف انك عالم من المتناقضات، أنا أحس بذلك ولهذا فإني دائماً أخاف منك.

ـ تخافين مني أنا؟

ـ نعم أنت.

ـ لا تخافي يا جاكلين ولا تحكمي علي بعقلك، اتركي العنان لحدسك، انت تتمتعين بحدس مرهف، فلا تحكمي علي الا من خلاله.

وابتسمت له.. وفي ابتسامتي شعرت ان مقاومتي كلها انهارت لتحل مكانها راحة عميقة، فياضة. وأمسك بيدي وقال وهو يذوب عاطفة:

ـ لقد أوحشتني يا جاكلين.

وشعرت بحركة الحياة في أطرافي تتمطى حتى تشمل كل ثنية من ثنايا جسمي، واستيقظ الانسان الكامن في جوفي ولم يعد وعيي مقتصراً على حلم، لقد استملك ما هو أجمل من الخيال، وأروع من الأزهار والأشجار والثلوج والطيور المغردة. وعندما تطلعت في وجه كمال فيما بعد ونحن نرقص، كنت أنظر اليه بملء كياني، وكأن كياني كله كان يتطلع معي... اليه. واحتضنني بين ذراعيه فارتفعت عن الأرض، وذاب الإطار الذي وجدت فيه منذ أن فتحت عيني على الدنيا، وانقشعت الغيمة التي كانت تختبىء وراءها حياتي الحقيقية وشع كوني ببزيق منور وضاح.. وغابت نجمتي من السماء ليطل عليّ وجه كمال ويقول:

- أما زلت تريديني أن أعمل في السياسة؟

وقلت:

- أما زلت تذكر؟

- وكيف أنسى!

- إني أحب أن اتحدث معك.. احب ذلك كثيراً.

- وأنا أحب أن اتحدث معك، وأحب ان أفعل أشياء أخرى عديدة.

- هل تحب أن ترقص معي؟

- أحب أن أرقص معك وأحب أن أحتضنك وأن أقبلك من منبت رأسك إلى أخمص قدميك.

وقبلته على خده، فقال:

- إنسي أني قلت هذا.. أرجوك أن تنسي يا جاكلين.

ـ كلا . . لن أنسى ، ولا أريد أن أنسى ، ولا أريد أن أهرب بعد أن وجدتك .

وضمني إليه ، فرحت في غيبوبة ، أحتضن فيها هذا الحلم الذي كنت أخشى أن يبدأ لئلا ينتهي ، كما ينتهي ويذوب كل شيء في هذا العالم. وشعرت به يأخذ بيدي الى ما لا نهاية فنكتشف معاً تلك المعجزة: ان ليس هناك نهاية ، حتى خوفي من الارتباط ، خوفي من نفس الشيء الذي يجذبني الى هذا الارتباط ملأ كياني برعشة لذيذة. كنت أتمزق شوقاً ولهفة للانزلاق في وجدانه ، وأنا أعرف منذ الآن اني سأثور عليه وأنسى جماله ، وأرمي بنفسي من جديد في لجة من القلق والخوف والضياع . . عرفت كل هذا ، ولكني وطدت نفسي على التحمل لأنه بوجوده أعطاني سبباً لوجودي أنا .

وتمنيت ان أخبره كل هذا ونحن نرقص ، ولكن لساني انعقد ، خفت ألا يفهم اذا تكلمت . . كنت قانعة بأنه هو يحس ما أريده أن يحس . هو قريب الى نفسي وكأنه أنا ، وهو بعيد عني لكي يظل هو.

عدت الى البيت تلك الليلة وفتحت باب غرفتي الى العالم الذي اكتشفته لنفسي . . ولما سألني زوجي في اليوم التالي كيف كانت السهرة ، اكتفيت بأن أقول له انها كانت رائعة!

٥

لقد صعدت جبلا شاهقاً. واعتليت صخرة ضخمة تتمايل، ومعها كنت أتأرجح بين مجدين! كان علي ان اختار بين مجد باهر قصير العمر، يحتضنني الآن بعنف ليرميني بعد ذلك في هوة سحيقة لا استفاقة من بعدها مطلقاً، وبين صمت مطبق قاس يرافق رحلتي العابرة، ويوصلني في النهاية الى الجبل الشاهق، فأقف هناك على أية صخرة شئت، بقدمين راسختين.

أجل انها النوبة اللعينة، لقد عاودتني في الوقت الذي ربحت فيه الدعوى، فكنت أشعر بمخالب الدوار تنغرس فيّ وتؤرجحني بين الهوة وبين المجد.

لقد كانت لحظة حاسمة تلك التي ربحت فيها الدعوى، فتبين أن القاتل لم يكن سوى شريك الزوج في صالة القمار. لقد أراد الاثنان ان يتخلصا من حصة المرأة، التي كانت قد ورثتها عن أبيها، فعمد الشريك الى الاعتداء عليها، قبل قتلها ليوهم العدالة أن وراء الجريمة قصة حب. وجاء المجرم الذي يقطن باريس معظم وقته، خصيصاً الى المدينة وقام بجريمته، ثم عاد الى باريس في الليلة نفسها. ولم يعلم أحد بوصوله وبسفره سوى زوج الضحية، وحارس صالة القمار الذي عرف بمجيئه بمحض الصدفة، وكان ذلك عندما طلب الشريك من الحارس أن يأت له بسيارة أجرة في نفس الوقت الذي ارتكبت فيه الجريمة. وفي نفس اللحظة التي وصلت فيها السيارة، أرسل الزوج في طلبه لكي يجلب له

ظرفاً، اتضح فيما بعد أنه يحتوي على مبلغ طائل من المال.

وبينما كان الحارس يجلب الظرف، اطفئت أنوار المكتب الذي يقع في الطابق الثاني لصالة القمار زهاء ساعة كاملة. وبعد الفوضى الناتجة عن انقطاع الكهرباء، اكتشفت الجريمة واتهم الزوج حارس الصالة بقطع الأسلاك الكهربائية وبالسرقة والاعتداء خلال الفترة التي انقطعت فيها الكهرباء.

وعندما عرفت انا أن الشريك لم يبق في المدينة سوى يوم واحد، اشتبهت به، وبعد التحريات عنه قررت السفر الى باريس. وهناك وجدته مختفياً عن عنوانه الدائم، فتأكدت ظنوني، وبعد اتصالات وتحريات واسعة ومجهود منهك لإثبات جرائم سرقة وتزوير كان الشريك قد قام بها في بيروت وباريس، نزلت السلطات عند رغبتي باعتقاله واستجوابه حتى اعترف. وعدت من باريس ظافراً، واستقبلت أهل المتهم وعشيرته دون ان اطلعهم على شيء، وكذلك فعلت مع كل من اتصل بي من طرف الزوج. وخيل لأكثرية كبيرة من الناس ان رحلتي في الحقيقة لم يكن لها أية علاقة بالقضية. غيرأن فؤاد نادر عندما جاء يزورني بعد عودتي لم يكتف كالآخرين باجاباتي المقتضبة بل قال لي:

ـ يخيل الي انك ترمي الى شيء ما من وراء هذه اللعبة. فسألته ببراءة:

ـ أية لعبة؟

ـ هذه القضية وذيولها ورحلتك الغامضة الى باريس، يخيل الي اني بدأت اشم رائحة معينة من ورائها.

ـ لقد اعتدت شم الروائح يا عزيزي فؤاد. ما رأيك في أن تبدأ

بالبحث عن الحقائق هذه المرة؟

وانتفض من مكانه وقال:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن تفتش عن الحقيقة من وراء القضية بدلاً من أن تزعج نفسك بروائحها الكريهة.

ـ أي حقيقة هذه التي ستخرج من فم مجرم؟

ـ انها ستخرج من فمي أنا؟

ـ هذا ما أبحث عنه يا صديقي، ماذا تريد من كل هذا؟

ـ سئمت «الشمشمة». هذا كل ما في الأمر؟

ـ.. أو لعلك تتوق الى هتافات اعتدت على سماعها في صباك؟

ولم أجب فؤاداً وأكتفيت بأن أحدجه بنظرة قالت كل ما يستحق أن يقال له بعد أن كان ينوه في حديثه بالهتافات التي كانت تحاصر بيتنا لما كان والدي حياً. لا شك أن الهتافات التي كانت تطرق سمعي في الآونة الأخيرة ذكرتني طويلاً بالماضي، وذكرتني ببريق عيني ذاك الرجل الذي لم تغادر صورته ذاكرتي لحظة واحدة من لحظات حياتي، ولا يمكن أن أنسى ذلك البريق الذي كان يسلب لب الناس، وها هم الناس، نفس الناس وأولاد الناس يعودون الى منظارهم القديم، ويحاولون من خلال ابنه الذي هو أنا ان يحكموا عليه من جديد بعد أن كانوا قد أدانوه.

وسرعان ما أصبح الأمل ملموساً من حديث الناس الذين أخذوا يتجمهرون حولي كل مساء وكل ظهر وصباح، وكان الأمل يتفتح ويزداد

كلما لمسوا استعدادي لمساعدتهم، وتبدل الأمل الى ثقة وضعوها بين يدي حين أخذوا يرددون كلاماً كان في الماضي أمنية خرساء لحاجاتهم ورغباتهم. وكانت كل قضية اكسبها تجلب معها رجالاً يستفهمون. وتوالت القضايا الرابحة ومعها توالت الاستفهامات العابرة، حتى أصبحت أسئلة واضحة عما يجري من تطرف في البلاد. ويوم برأت المحكمة موكلي، اندلعت الحناجر بهتافات أصعدتني فوق الأعناق، وشعرت بالسماء تقترب مني وقبر أبي من تحتي يتزحزح، فكنت أصاب بالدوار. . لأن السواعد الفتية التي كانت تتلقفني كان بإمكانها أن ترميني الى هوة، فأنزلق معها الى الشارع وأقودها لتفعل ما أشاء. غير أني كنت أرى حبل المشنقة بانتظاري في نهاية الطريق، فأغلق فمي بعناد وأسدل الستار على المسرحية الناجحة التي لم أنفك أمثلها منذ وفاة أبي، وحكمت على نفسي بالخرس كي اتابع الطريق الذي رسمته لنفسي. لقد كان مستقبلي كله، في تلك الثواني التي تلت حكم البراءة يتوقف على حركة تأتي من شفتي!

وكانت البلاد تقرب من حالة غليان، والقوم ضائعون يفتشون عن فوهة البركان الذي سينفجرون منه، وكنت أشعر بالهزات المكتومة الخرساء، فأصعد بعيداً عنها الى الجبل لأسمع صداها من حديث خليل بك وأحدد مواقعها مع أنطوان. وبعد أن أترك فؤاد نادر وزمرته يتضاحكون ويتراقصون غير عابئين بما يحدث تحت أقدامهم، اذهب الى ابراهيم وزوجته لأصم اذني عن الأصوات كلها. . في موسيقى باخ. أما الراحة والاسترخاء التامّين فلم أكن أجدهما الا عندما أضيع وجداً في عيني جاكلين وأنهل من لدنها روعة الروح فأتذكر اني ما زلت انساناً.

ولكم كانت دهشتي بالغة عند عودتي من باريس اذ علمت

بالصداقة التي نشأت بين ليزا وجاكلين، وسعدت بتلك المفاجأة، اذ شعرت بنوع من الاطمئنان على جاكلين وكأني قد وجدت لها ملجأ يحافظ عليها اذا ما هبت في طريقها رياحي المسمومة. لقد كنت أتردد بشأنها منذ البداية، وكنت أحاول أن اتجاهل حاجتي اليها، وظللت أهرب من طريقها لئلا يأتي اليوم الذي سأجد نفسي فيه مجبراً بطريقة ما على الإساءة اليها.

ولكن جاكلين اقتحمت سكون نفسي بأعجوبة، وأيقظتها بعد طول عطش وبوار. لقد بعثت الحياة في جسدي الميت وحررتني من الجري وراء اللذة العابرة اللاشخصية، وأعادتني انساناً بعد ما كنت كالآلة التي تمتص ببلادة وشراهة كل شيء جميل. وليت هذه الجميلة تدري اني بت أحس بحاجة اليها، بت أريدها كما أريد ان أحس بدبيب الحياة في جوفي، الا اني كنت أطلب منها أن تقبل بي دون أن أعطيها من نفسي سوى مخلفات انسان. وكلما كنت أقصد جاكلين، كان يحدث ذلك بملء ارادتي وبتصميم لا أخفيه عن نفسي. كنت أقصدها كي أرتع في رحاب روحها الشاسعة فأعود القهقرى الى شبابي، الى تلك الفترة قبل وفاة أبي، وأصبحت جاكلين المرأة التي تعكس معظم أماني الخرساء.

ورحت أحتضنها في وجداني لكي أتحسس وجودها في كل لحظة شئت، وعلى هذا المنوال عايشتني كل لحظاتي. لقد كنت أتوق اليها كلما كنت في حفلة من حفلات فؤاد نادر، وكلما أحاطتني عيون جوفاء غائرة في عالم ليست سوى معالم اللذة والشبق، كنت أتوق الى صفاء عينيها، وأتوق الى جزعها عليّ كلما تعرضت لهجوم أرده عني ببرودة قاس، وكلما تداولت مع انطوان في خفايا التيارات السياسية بحوار لا مجال للانفعال والتحمس فيه، أتوق الى ثقتها بي وطوحها من أجلي. وكنت أهتز فرحاً

كلما سمعت أحداً يتحدث عنها، فأشعر وكأنه يتحدث عني. كتلك المرة عندما كنت في حفلة عشاء في بيت يشابه صاحبه فؤاد نادر، وكانت نجلا هناك أيضاً تبحث عن سلواها وحريتها المسلوبة بعيداً عن زوجها ومؤامراته، وسمعتها تتحدث مع بعض المدعوين عن جاكلين فاقتربت منهم لأستزيد التفاصيل وجفلت وأنا اسمع نجلا تقول:

ـ لقد اصبحت مدام جاكلين هذه نجمة مجتمع، لا شك أنها صيد ثمين ووجه جديد لم تشبع لهفة الرجال منه بعد.

ـ وانبرى أحد الرجال يقول:

ـ صدقيني يا نجلا إنها ليست من هذا النوع على ما يظهر!

وقهقهت نجلا عالياً، فجاءت ضحكتها نسخة من ضحكات زوجها.. ضحكات النساء اللواتي يدرن في ذلك الفلك الفارغ العاهر.

وقال لها الرجل:

ـ لماذا تسخرين هكذا؟ إنها في الحقيقة سيدة من الطراز الاول.

وأخذت نجلا تتساءل، وخيل إلي من نبرات صوتها أنها ثملة تماماً.

ـ ومن أين عرفت كل هذا؟

ـ لقد تحدثت معها في إحدى المناسبات. انها محدثة بارعة. وتطرقنا الى موضوعات شيقة للغاية. تصوري أنها تتكلم في السياسة؟

وتدخلت في الحديث وسألت:

ـ ماذا تقول مثلاً، ما هي آراؤها؟

واستدار الرجل الي وكأنه استفاق الى وجودي لتوه، وقال:

ـ يدهشني أن لا تعرفها يا استاذ كمال، إنها تهاجم هذا العهد وتتهمه بالتطرف وتدعو الى الإتيان بعناصر جديدة شابة.

فقالت نجلا بتهكم:

ـ لماذا لا تتعرف بها يا كمال، لعلها توصلك الى المجد!

فضحك الحاضرون وقال أحدهم:

ـ وهل ينقص الاستاذ كمال شيء من المجد؟ انه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يهدىء الشارع المعارض.

أجابت نجلا:

ـ كمال؟ بالطبع هو الرجل الأمثل، لا سيما بعد أن ربح دعواه. ولكن هل تظنه يكتفي بهذا المجد؟ لأنه مستعد لالتهام كل مجد يقع في طريقه!

وجاريت نجلا في سخريتها، ولكني بعد برهة قصيرة سحبتها من يدها الى زاوية منفردة وقلت لها:

ـ ماذا حدث لك يا نجلا؟ وكيف أصبحت تتكلمين هكذا؟ أهذا أنت. نفس تلك السيدة التي نفرت من الجو الخانق؟ هل نسيت أنك تفتشين عن الهواء النقي لتستنشقي فيه حريتك وسعادتك؟

طأطأت رأسها خجلاً ثم ارتمت على صدري وقالت:

ـ أوصلني الى البيت يا كمال، إني تعبة، ثملة.

وخرجت مع نجلا، وأدخلتها سيارتي. وانطلقت الى بيتها وهي بجانبي صامتة طول الطريق وقد أرخت رأسها على كتفي. وعندما وصلنا ساعدتها على الدخول الى البيت. ووقفت برهة تحدجني بنظرات تائهة

حتى ترامى الى سمعنا أصوات عالية من المكتبة. واتجهت نجلا نحو الصوت وأنا أتبعها بخطوات متمهلة حتى فتحت الباب. وفاجأتني بصياحها وهي تشير الي وتقول:

ـ لقد جئتكم برجل الساعة!

وأطل فؤاد من الباب وعندما رآني هرع نحوي يلح علي بالبقاء. وجاريته بالدخول الى المكتبة، ووجدت زمرة من أصدقائه المقربين يسكرون ويعربدون. وظللت صامتاً أستمع الى نقاشهم في السياسة وهزئهم بصحف المعارضة. وشاركتهم نجلا في الضحك والصياح والنقاش، وظننتها قد نسيت وجودي إلا أنها ضحكت قائلة:

ـ لا تسخروا من المعارضة أمام كمال!

وقال أحدهم:

ـ كمال بك يعلم جيداً أن المعارضين لو كانوا في محل الحكومة لاتجهوا في نفس السياسة.

ولم أجد مفراً من الإجابة بعد أن تصوبت الأنظار بحدة نحوي.

ـ ولكن ذلك لا يمنعهم من الإصرار على المعارضة.

فضحك فؤاد وقال:

ـ انها مشكلة في غاية البساطة. لا أفهم لماذا نحن نبحث بهذا الموضوع منذ اكثر من ساعة كاملة.

فأجبته بهدوء:

ـ أنت تتكلم يا فؤاد وكأنك لا تحس بغليان الشعب، أنت تحصر

تفكيرك في المعارضة دون أن تقدر عواقب تطرف الحكومة .

قال أحدهم :

ـ اذا كانت الحكومة متطرفة وهذه بالطبع وجهة نظر، فإن الرئيس يستطيع ان يأتي بغيرها .

وقال آخر:

ـ لا أظن انه يريد استبدالها .

وقال فؤاد :

ـ كلا إنه لن يستبدلها ، لقد قال لي ذلك بنفسه في الأسبوع الماضي ، ولكنه يستطيع ذلك اذا شاء .

وقال ثالث :

ـ يخيل إليّ انه من المستحسن استبدالها ولو لفترة ، اذ لم يعد بالإمكان أن نتجاهل الشعب . . ولا حتى جيراننا .

فقلت :

ـ أجل إن جيراننا لن يسكتوا على تشجيع المشاغبات التي تتم هنا ضدهم .

صاح الأول :

ـ أين هي المشاغبات ، هل ستصدق اذاعاتهم وصحفهم؟

إنها أكاذيب يختلقونها كي يتحججوا بالتدخل .

وما إن سمع الموجودون هذا حتى انفجروا يتصايحون بتعليقاتهم ، وتركتهم يفرغون جعبهم كلاما ونقاشات ثم صرخت :

ـ يا جماعة، لقد خرجنا عن الموضوع. اذا كان جيراننا يتدخلون أو لا يتدخلون فهذا ليس صلب الموضوع.

وصاح بي أكثرهم تطرفاً بلهجة مسموعة ساخرة:

ـ ما هو اذن صلب الموضوع، أن نفسح لهم المجال كي يأتوا ويحكمونا؟ أهذا ما تريده؟

وما كاد الرجل ينهي جملته حتى كانت الوجوه قد توجهت صوبي تكاد تفترسني، تنتظر مني موجة الغضب العارمة التي كنت أقتلها بإرادتي، وأدوس عليها وهي لا تزال في مهدها. واستدرت بجسمي كله الى حيث كان الرجل واقفاً، وتقدمت اليه ببضع خطوات وأنا أعلم ان الجميع يظنون اني أتوجه لضربه وسمعت بعض الهمسات وشعرت باللغط المكبوت حولي. ووقفت قبالة الرجل تماماً، ونظرت في وجهه بملء وجودي وقلت:

ـ صلب الموضوع يا صاحبي هو أن نتصرف في لبنان كدولة. هل تفهم؟ كدولة لها كيانها واستقلالها ومصلحتها!

وشعرت بهم حولي يتنهدون بعد أن تجاوزت إهانة الرجل؛ وظلوا صامتين فأردفت:

ـ وسياسة دولة لبنان يجب أن تكون مستوحاة من مصلحتها الخاصة كأي دولة واثقة بنفسها، ترتكز على استقلالها بوجودها نفسه.

وكان الرجل قد خفض عينيه وأخذ يتململ فأجابني رفيق له:

ـ وانت ترى ان من مصلحة لبنان أن نترك جيراننا يتدخلون في شؤوننا؟.

ـ كلا . . ولكنني لا أرى أن يظل لبنان مغمض العينين لما حدث حوله من تطورات .

نحن نستطيع أن نتفاعل مع جيراننا فنأخذ منهم ما يوافقنا ونعطيهم بدورنا من تجاربنا .

ـ أي بضائع هذه التي بامكاننا أن نتبادلها واياهم : إن حدودهم مغلقة في وجهنا !

ـ البضائع ليست عماد الأمة ، والبضائع ليست كل ما نستطيع أن نتعامل به . لقد سئمنا الحياة على هذا المنوال ، معتمدين على أسس قابلة للتضعضع من أول نسمة ريح تهب صوبنا . يجب أن نبني هذه البلاد على أسس دولة وليس على أسس السمسرة .

وسكت قليلاً ثم قلت صارخاً :

ـ لبنان الذي يريده أمثالك ليس سوى سمسار لأغراض بعضكم الشخصية ، ولبنان الذي يخشى عليه أمثالك هو سمسار الدول الأجنبية . . فاذا كنت لا ترضى أن يتدخل جيراننا بسياستنا الداخلية فانا على أتم الاستعداد لموافقتك ، انما على شرط أن توافقني أن لا يتدخل أصدقاؤك أنت !

قلت هذا وأنا أعلم أنه صديق لدولة أجنبية هي وراء الكثير من تخطيات الحكومة . ثم قمت من مكاني مودعاً ، وقد بلغ بي القرف والاشمئزاز حداً لم أعد أحتمله .

وخرجت الى ظلمة الليل ، وأنا أشعر بالتعب إلا أن حزني على نجلا كان يفوق تعبي . وأخذت أفكر بها كيف أنها ظلت طوال السنوات التي

عاشتها مع فؤاد تصارع الداء الذي يشكو منه وتمعن بالابتعاد كي لا تصاب بالعدوى، وعندما جاء اليوم الذي تحررت فيه وأصبحت حرة طليقة من نفوذه، وجدت أنها لم تعد تعرف سوى الحياة التي تسللت الى نفسها رويداً رويداً، سنة بعد سنة، فأمسى الاضمحلال الخلقي طبيعتها الثانية، وكأنها قطعت جسراً لا عودة من بعده إلى العالم الصافي الصادق الذي كانت تحلم بالرجوع اليه. لقد كانت تشكو الفراغ والوحدة والضياع.

وكذلك كانت جاكلين عندما التقيتها في المرة الأولى فأصبحت اليوم حديث المجتمع ونجمته التي تتألق! كم أتوق اليها في لحظات مثل هذه، عندما أتحسس ما خلقت منها؟ انها تتألق بكلماتي وباتجاهي السياسي مفعماً بروحها وبذكائها. انها الانسان الذي تكامل من خلالي أنا، وكأن الدم الذي يجري في عروقها ينبع من عروقي وقلبي أنا. وبالرغم من اني كنت أشعر تجاهها هكذا، فقد كنت في الوقت نفسه أقاوم دخولها التام الى صميم حياتي لئلا يحق لها في يوم من الأيام أن تقتحم ارادتي في لحظة من تلك اللحظات النادرة التي تستنفد فيها قوتها، فتجرني عندئذ الى هاوية من الانفعالات لا خروج منها ولا حياة لي من بعدها.

وهكذا كنا نعيش معاً، كل منا على حدة، نلتقي بصمت الواقع الذي لا يستطيع أن يجمعنا معاً. وفي احد لقاءاتنا الأولى كانت جاكلين تحكي لي عن هواجسها بشأني وعن قلقها عليّ وطموحها من أجلي، وأكثر من كل هذا، خوفها مني. لقد كانت تتحدث عن تلك الأمور بينما أنا أهيم وجداً وضياء بالعاطفة التي تكبلني بها، فتشلني عن التفكير بأسلوبي المنطقي الخاضع المستعبد بإرادتي. وفاجأتني تلك المرة بقولها:

ـ يخيل إلي أنك لا تتورع أن تتركني في أية لحظة تشاء!!

ـ أنا اتركك يا جاكلين! كيف تفكيرين هكذا! أنا لا اريد مطلقاً أن ينقطع الخيط الذي يربط بيننا.. بل إني أريد أن أحافظ عليه كل ما في طاقتي ووسعي.

ـ أي خيط هذا الذي تتحدث عنه، هل هناك من خيط يربط بيننا؟ طالما تساءلت ما هو الشيء الذي يربط بيننا. إني أحس بك تارة قريباً مني وتارة اخرى اشعر بك بعيداً عني. أنا أعرف يا كمال، أعرف أن ما أريده منك ليس نفس الشيء الذي تريده مني.

وترددت في الإجابة، إذ هبط الستار المبهم الغامض بيننا، ولم يعد بالإمكان ان نجري حواراً ناطقاً، لأني سأقول لها ما لا تفهمه. وتطلعت في وجهها، وشعرت بألم يعتصرني لأننا لن نلتقي، بينما نحن في الحقيقة نلتقي بنمط غريب وبأسلوب عجيب معقد. وكل ما كان باستطاعتي أن أقول لها حينذاك هو اننا سنجد الوسيلة التي نستطيع بها أن نعبر عما نحس به.. ونخلق معاً شيئاً كبيراً يربطنا ببعض.

ونمت علاقتنا على هذا النحو، كل منا يعطي الآخر ما هو بحاجة اليه، وظل كل منا يكافح الآخر لأننا كنا بالفعل لا ندور في فلك واحد. وكنت احس بكفاحها، وكنت أتلمس معالم الصيغة التي تريدني ان انسكب فيها، وكنت أشعر بالثورة المكتومة في جوفها، ثورة لا منفذ لها لأنها لا تعرف العقبات التي تصدها.

وفي كل مرة تصل الى ذروة ضيقها ووحدتها، كانت تصطدم عيناها بعيني فتجدهما تنطقان بكل ما تريد أن تسمعه مني كلاماً وحديثاً، عندها كانت تهدأ وتستسلم ثم تعتورها الدهشة.. وكأنها تتساءل: مم كنت اشكو إذن؟

وحاولت في البداية أن لا ألمسها، حاولت جهدي أن أظل بعيداً عنها لئلا تترك لمساتي آثار جروح في المستقبل الغامض الذي ينتظرنا.

وكنا مرة في زيارة ابراهيم وليزا، فنزلنا من عندهما معاً أوصلها الى البيت لأن زوجها اعتذر عن المجيء. وفجأة قالت جاكلين:

ـ أتذكر المرة الأولى التي أوصلتني فيها الى البيت؟ قبل أن يحدث.. يحدث كل هذا؟

وتألمت عندما سمعتها تقول عن الرابط الرائع الذي يحتوينا.. كل هذا، ولكني كنت أعلم أن عالمنا ساكت اخرس، ليس له اسم ولا صفة، انه فقط موجود لأننا نحن، أنا وهي نحس به كذلك.

فأجبتها:

ـ أجل أتذكر يا جاكلين!

ـ وهل تذكر ما دار بيننا من حديث؟

ـ لقد كان حديثنا الجدي الاول. تكلمنا يوم ذاك عن اللبنان الذي لم تكوني قد ارتبطت به، أليس كذلك؟

وتنهدت وقالت:

ـ أجل لقد كنا نتحدث وقتها، كما نقول اشياء اتذكرها حتى الى ما بعد عودتي الى البيت، أما الآن فلم يبق لنا شيء نقوله!

ـ لماذا تتكلمين هكذا؟

ـ لأن هذا هو الواقع.

وتنهدت، وكنت احس بما يجول بذهنها فقلت لها:

ـ أما زلت تريدينني أن أعمل في السياسة؟

ـ أنا؟ نعم أنا ما زلت أريدك أن تعمل في السياسة، ما زلت مؤمنة بك، بل إني لم أحب لبنان هذا الا من خلالك أنت، ولكن . .

ـ ولكن ماذا يا عزيزتي؟

وتطلعت إلي ثم اشرق وجهها وتدفقت روحها بإشراقة الحياة، ولبثت برهة اتأمل قسمات وجهها وروحي تتلهف الى الضياع الكامل في عينيها، لتذوب فيهما وتنحل كافة المتناقضات التي تبعدني عنها. وتململت في جوفي رغبة جامحة الى أن اقول لها . . ولكن ماذا كنت سأقول، وليس لدي ما أقوله. ووجدت يدي تتلمس الطريق الى يدها فتمسكها وتشد عليها.

فلانت وابتسمت وقالت:

ـ هل تذكر تلك المرة الاولى التي كنا نتحدث عنها. ولم اجبها، إذ ظللت غارقاً في تأمل هذا الوجدان الذي تمتلكه جاكلين، وكأنها لم تعش في الدنيا إلا لتلتقط أروع وأصفى ما فيها، فتودعه في شخصيتها.

وقالت:

ـ هل تصدق أني كنت أود أن أمسك بيدك منذ تلك الليلة، هل تصدق ذلك؟

ـ وهل تصدقين يا جاكلين أني كنت أقاوم الرغبة نفسها؟

فقالت:

ـ ولماذا لم تفعل ذلك؟

فسكت. وأنا اتمنى لو أنها اتت الي قبل اليوم، قبل أن أصبح حطام انسان، فأمنحها كل نفسي وكل عاطفتي. ونظرت اليها بحزن فوجدتها قد سبقتني اليه بعد أن هبط ذاك الحائط الغامض الذي يفرق بيننا، ومددت يدي الى وجنتيها اتحسس كل زاوية من زوايا وجهها وهو يفيض عاطفة. وايقنت في تلك اللحظة أني أحيا على عاطفتها التي تغمرني بها دون حساب ودون مقابل، وأيقنت أن غذائي الروحي هو أيضاً من عاطفتها التي تطوقني بها بتفانٍ وإخلاص لم أعرفهما بعد في حياتي، ولم يعد بالامكان أن أخفي عن نفسي أن عاطفتها لي هي القوة التي أستند اليها في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به أهدافي في الحياة. ودون أن أدري قربت شفتي من جبينها، وأخيراً أخيراً تحادثت شفاهنا. فقلنا حديثاً لم يكن بامكاننا، لا هي ولا انا أن ننطق به كلاما.. مثلما يتكلم الآخرون!

واستفقت من الحلم الذي كنت أعيش فيه حقيقتي، وابتسمت جاكلين براحة وسعادة فعرفت أنها أخيراً قد أحست بي كإنسان بعد فشل حوارنا معاً في أن يوصلنا الى تلك القمة الروعة من اللقاء. وللمرة الأولى لم يكن حديثنا صامتاً، اذ قال ما كنا ننتظر أن نقوله منذ أشهر.

وقطعت جاكلين صفاء السكون الذي كان يلفنا وقالت:

ـ هل أنت هكذا مع كل النساء؟

وفوجئت وذهلت، بل غضبت من قولها.

ـ جاكلين، ماذا تقصدين؟

ـ لا أعرف لا أعرف بالضبط، ولكني لم اكن أدري اني.. اني..

وترددت ثم قالت وكأنها أزاحت عن كاهلها عبئاً ثقيلاً:

ـ أني امرأة !

وصحت مندهشاً :

ـ أنت لا تعرفين أنك امرأة؟ أنت ماذا إذن؟

ـ لم تفهم ماذا أريد أن اقول؟

واقتربت منها مرة اخرى وهمست في أذنها وشعرها وفي شفتيها :

ـ جاكلين، أنت تتدفقين أنوثة من منبت رأسك الى أخمص قدميك.

واحتضنتني بقوة ثم قالت :

ـ ولكني لا أريد أن أكون مثل أية امرأة، مثل كل النساء اللواتي يحمن حولك، أريدك أن تحس بي، بروحي، أنت تحس بروحي اليس كذلك يا كمال؟ أعرف انك تحس بها عندما أكون معك، ولكني في اللحظة التي أبتعد عنك أضيع بين الآخرين، لا سيما أولئك الذئاب الذين أشعر بأنيابهم تفتش عن نهشة مني كيفما أتت وكيفما كانت. وافكر في تلك الغمرة بك فلا أعرف لماذا أشعر أن شيئاً ما يقف في الطريق ويسد علينا اللقاء ويدفعني الى وحدة مظلمة!

كانت تتكلم، وكنت أنا الآخر اتخبط لوحدي في ظلام دامس حزين. وشعرت بالدوار يؤرجحني، إذ كنت أريدها، أريدها كما تريدني هي. واعتورني ألم باتر وكأني رجل ناقص لأني لا استطيع أن أعطيها نفسي. وأي سراب أعطيها وانا رجل دون قلب، رجل قد غارت عواطفه وتلاشت روحه فكيف يحب وكيف يعطي؟ كيف أقول لها إني أرفض الحب لأني صممت أن أظل متماسكاً وعبداً لإرادتي.. فقط لإرادتي، وإنه لم يعد باستطاعتي أن أفعل ما أشاء، لأني قد وطدت نفسي وعودتها على الصمود والانسحاب في الوقت المناسب. والغريب أني كلما

فكرت بالابتعاد عنها، كنت أرتعد من الفراغ الذي سأعيشه إذا ما فقدتها، وأرتعد أكثر لهول الصدمة التي سأسببها لها إذا ما خيبت ظنها. وهي الأخرى تحس بهواجس كهذه والا لما تكلمت هكذا، إنها تحس بالحواجز وتعرف ملامح الحائط الذي يفرق بيننا ولا تستطيع أن تفصح بشيء، ولكنها بالرغم من العقبات ظلت صامدة وتحملتني وتقبّلت الجانب المبهم من شخصيتي. وثورتها لم تحدث ولم تندلع الى الخارج الا بعد أن أحست انها قد توغلت في وجداني وعرفت أني أريدها، لكنها ما زالت تجهل الصيغة التي أريدها بها، إنه لم يعد يكفيها أن تعرف بوجودها فيّ، انها تريد أن تعرف اين هي في نفسي، إنها بحاجة الى مرتكز تتعلق به لأنها تخاف على الروح الصافية في نفسها من الابتذال الذي يحيطني.

من أين ستدري بحرصي عليها وانا لم أنطق حرفاً ولا كلمة، وكيف بوسعي أن أنطق فأزل وأنزلق بالارتباط بها، ولا تعود ارادتي ملكي وانا سلطانها؟ ولعل استحالة الحوار الناطق بيننا هو الذي دفعني الى ان أريدها! أجل أردتها في جلدي وجسدي، أردت أن أمتلكها جسداً وروحاً، ولم تكن رغبتي من أجل إشباع غرائزي... أنا لست هكذا معها، أنا الذي اعتدت على الجري وراء المتعة الباهتة النيئة التي تتلاشى فيزول وهجها حالما تنتهي. لقد اردتها لأني لم أقو على التعبير... أردت جسدها لكي أقول لها كم أعبدها وكم تمتلكني بروحها، فتشبع وتملأ كل ثنايا جسدي وعقلي وحطام قلبي.

وهكذا انصبت على هواجسي كلها، وأصبت بالخرس التام وأنا أشهد دموعها الرقيقة تتلألأ بتردد في عينيها. وبطريقة ما شعرت برغبة فيها اكثر مما بوسعي أن أرغب اي شيء في العالم. ولكن كلماتي خرجت هزيلة بالنسبة لأحاسيسي اذ قلت لها:

ـ جاكلين، يا عزيزتي أنت لست كالآخرين بالنسبة لي، ولو كنت كذلك لما ترددت بشأن علاقتنا في البداية.

وأنت لا تعرفين كم ترددت. انا أشعر نحوك بمسؤولية ولا أريد ايذاءك، ولهذا أنا مجبر أن احذرك مني. أنا لا أريدك أن تتعلقي بي يا جاكلين!

وكتمت الألم في نفسي وأنا أشهدها تنتفض مجفلة:

ـ لا تريدني أن أتعلق بك؟ ماذا تريد مني إذن، لماذا نحن نلتقي؟

وأمسكت بمرفقيها وقلت:

ـ جاكلين، صدقيني اني لا أتكلم هكذا الا من شدة حرصي عليك، لأني سراب يا جاكلين، ولا اريد ان أخيب ظنك بي يوماً ما.

وفاجأتني بقولها:

ـ ومن قال لك انك لا تخيب ظني منذ الآن، ومن ادراك اني لا أفهم متناقضاتك؟

وتشجعت أن أسألها:

ـ كيف تعرفين؟

ـ ليتني أدري، ليتني فقط ارى، حدسي هذا الذي نصحني بالاستماع إليه يدفعني نحوك ويجعلني أحس بك، ولكن عقلي مغلق وقاصر عن فهمك.

وكأن عينيها وقعتا على شفتي بالرغم منها، وكأنها لم تدر ولم تعرف أن أنوثتها تدفعها نحوي، وكأنها لم تر أمامها غيري لتدفن عذابها،

فاستسلمت لشفتي وراحت تفرغ في جوفي رحيق الحياة الذي أطلبه منها، وامتصت من وجدي قوة تعينها على العذاب الذي أسببه لها، ثم سحقت بعاطفتها ذلك الدوار اللعين الذي ما فتىء يؤرجحني منذ أن بدأ حديثنا.

وتلاشت متناقضاتي، لأخرج منها رجلاً كاملاً يهتف باسم حبيبته.

ـ جاكلين.. جاكلين ألا تريدينني؟

وفتحت عينيها بتمهل، وكأنها لا تريد أن تستفيق من الحلم الذي تعيشه وقالت بتردد:

ـ لا أدري، لا أدري، اني اكتشفت شيئاً جديداً يولد في نفسي.

ـ ما هو، أخبريني؟

ـ أتريدني أن أخلع ثيابي كلها دفعة واحدة؟

ـ أي ثياب؟

ـ أنت لا تفهم أبداً كلامي. اني عندما أحدثك عن عواطفي نحوك أشعر وكأني أخلع ثيابي أمامك.

ـ هكذا؟ ومتى تخلعين ثيابك كلها؟

ـ لا أدري يا كمال، لا أدري. ولكن قبل هذا أريد أن تهديني شيئاً.

فسألتها بلهفة:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريدك أن تصبح رئيس وزارة!

ولم أتمالك من أن أشعر بالامتعاض والضيق، ولكنها تخطت مضايقتي وابتسمت ابتسامة لم أفهم مغزاها، وقالت:

هيا الى البيت !

وبعد أن أوصلتها جريت الى موعدي مع انطون في جريدته، وقد تأخرت عنه ساعة كاملة ودخلت مكتبه وصورة جاكلين ماثلة في مخيلتي، وشعرت كالعملاق وأنا منكب على العمل مع أنطون نعدّ الحملة التي سنواجه بها سياسة الحكومة المتطرفة. ونمت تلك الليلة قرير العين، وأنا أتخيل وجه فؤاد نادر وهو يقرأ صحيفة انطون في اليوم التالي، ووجه الرئيس عندما يلمس الاتجاه الذي تسير نحوه جريدة انطون، ووجه رئيس الوزارة عندما يسمع بتعليق انطون عن وزارته.

وظل وجه جاكلين يضيء لي مخطط طريقي حتى غبت في مجاهل النوم، وأنا مستلق على ظهري وابتسمت حين تذكرت انها سألتني ذات مرة:

ـ كيف تنام، على جنبك أم على ظهرك؟

٦

. . . وكنت أظن اني أحيا!

عشت ثلاثين عاماً وانا أظن اني أحيا، بينها أنا في الحقيقة لم أولد سوى بالأمس، ولم أفعل شيئاً خلال السنين الثلاثين تلك الا وكان تقليداً للآخرين. لقد كنت أحلم كالآخرين وتزوجت مثلما تزوج الآخرون، وكنت زوجة وديعة قانعة كزوجات الآخرين. ولم اكن أدري ان في جوفي هذا. . . انساناً. بل لم اكن أدري ما في جوفي أصلاً. ومثل الآخرين لم يخطر لي مطلقاً أن أتبين معالم الضيق الذي كنت أصاب به، وصدقت الطبيب عندما أعطاني حبة خضراء لتغنيني عن الآخرين كما يصدقه الآخرون أيضاً. وأخذت أفتش حولي عن الآخرين لأستبدل بهم الآخرين الذين تركتهم في باريس.

وإني أعرف حتى سني الثلاثين لم أكن بالنسبة لزوجي سوى اللوحة الجميلة التي يزين بها حياته الجافية المملة، انه لم يكن يتحدث معي، أنا التي كنت أحدثه، ولا كان يناقشني لكي يعرف بماذا افكر، ولا حاول أبداً أن يعرف «كيف» أفكر.

وإذا بي دفعة واحدة أكتشف أنه قد سلبني شبابي وضلل أحلامي. مرة واحدة عرفت أني كدت أتخطى شبابي هذا دون أن ترتعش يدي ودون أن يدق قلبي. لم أتلهف الى موعد، ولم أحلم في النهار، ولم أعرف الفرحة

التي تمنحها أشياء صغيرة، مثل علبة كبريت كتب لي رجل معين عليها رقم تليفونه!

كدت أتخطى شبابي هذا دون أن أعرف حتى انوثتي وخفايا انسانيتي وطاقة فرديتي. كدت أذبل قبل أن أتفتح، وكدت أذوي قبل أن أعرف النور الذي أضاءه كمال في وجودي. حتى الضحكة المشتركة لم أعرفها رغم أني كنت أدب على الأرض وأعيش بين الناس منذ ثلاثين سنة، حتى تلك الضحكة التي تتدفق من الأعماق فلا يشترك فيها إلا اثنان، لم أعرفها مع زوجي ولا مرة واحدة. ولا عرفت الابتسامة التي تنساب من صميم القلب لتقول أشياء لا ينطق بها أي كلام وأي حوار يجري بين اثنين. ولا شعرت برغبة في أن أكون بمفردي مع زوجي لنكوّن وحدة ما. إن وحدتنا قد فرضت علينا في عالم منعزل عن الانفعالات الحقيقية، في عالم شاده هو، ومن ثم أدخلني الى صمته وجفافه، فلم أعرف فيه سوى وجوه تلاشت الحياة من ملامحها، وذابت الحيوية في ثناياها. ولم أكن قد تحدثت الى شاب، ولا عرفت رقة الصداقة حتى وصلت باريس!

كل هذه الأحاسيس بقيت أشياء غريبة، تذهلني وتفرحني، أرنو اليها وأشتاق من بعيد وكأن لا حق لي فيها ولا حاجة بي اليها.

ولكني اليوم لست بجثة الأمس.. لقد ولدت!

لقد سطعت الشمس، وانفجرت الينابيع، واندلعت البراكين في وجودي. اني غابة وحشية وحديقة غناء، اني أتأوه ألماً وعذاباً. وأنا أفيض سعادة وحبورا. أنا كل هذا، لأني أخيراً وجدت دربي الى الحياة وانغمست في المطلق، اذ لا مطلق في الدنيا سوى الحياة نفسها، الحياة التي خلقتها لنفسي وارتضيتها لسعادتي.

وأما ذلك السجن الرهيب الذي كنت مختبئة فيه، فلقد تخلصت منه ورفضته.

لقد انفصلت عن الأرض الدنسة التي كنت أدب عليها دون ارادة ودون قرار.

وكأني كنت نعجة تساق الى مرعى الأكل والاستقبال، والابتسامة الدائمة والاستقرار المميت. وكأن سعادة الدنيا كلها، جوهر الحياة وزرقة السماء، وزقزقة الطيور ورعشة اليد ودقات القلب، كلها تنحصر في الهدوء والاستقرار!

لقد تخطيت ذلك الواقع المرير، تخطيته عندما تركته للآخرين، ينعمون بكسل التقليد والزيف والهدوء والاستقرار.

لم أعد أضايق زوجي كلما جلس يقرأ صحفه ومجلاته، ولم أعد أتذمر من انغلاقه في مكتبه لساعات طويلة، وكففت عن مضايقته بمزعجاتي النفسانية. كل هذا لم يعد يمسني في الجوهر، لأني كنت أهرب الى عالمي الخاص، وهناك في زاوية من نفسي أعيش حياتي الحقيقية، ثم أعود الى الأخرين لأمثل لعبتهم، وأضحك لسخافتهم، وأستمع الى أنينهم من مرض العصر، مرض الفراغ والملل، والضجر واللامعنى الذي يرهق أعصابهم بقلق مزيف يتزين به الرجال، وتتبرج به النساء، لا لسبب سوى أن الأعصاب المرهقة هي من دلائل التحضّر والتمدّن.

وأنا.. ألم أكن مريضة مثل هؤلاء الآخرين عندما التقيت بكمال للمرة الأولى؟ ألم ألتق به في الوقت الذي كان وجودي مغلفاً باللامعنى واللاهدف؟ انهما قد أحاطا حياتي بسياج من نفس ذلك السأم والفراغ والضياع، فأغلقت الباب خلفي وودعت باريس وطلة الاشراق التي وجدتها فيها الى غير عودة.

ألم ألتق به في الوقت الذي بدأت اشعر فيه ان حياتي على وشك الانتهاء أو التوقف عند حد معين، أو عند فاصل قاطع، أبدأ من بعده باجترار كل شيء عرفته؟ ثم حاولت أن أندفع الى المجتمع الذي دفعت اليه، لعلني أجد لنفسي مكاناً فيه؟

ولكنني لم أجد فيه سوى ضرورة ماسة لأن أفتش عن معنى المثل والقيم المتعارف عليها، والتي يتداولها الناس. لقد كنت كالخرساء الصماء لا أفهم ماذا يقولون، ولا أعرف ماذا يتوجب علي من ردود، وما عرفت أبداً من أجل ماذا يعيشون!

وضللت الطريق في محاولاتي، وأنا لم أجد بعد المكان الذي انتمي اليه، ولا الزاوية التي سأنطلق منها الى الحياة. وبقيت محتارة بين شعور الانتماء الذي كنت أتوق إليه، وبين الإحساس بالارتباط المؤقت الذي اعتدت عليه من كثرة تنقلي من بلد الى بلد.

وكنت أتطلع حولي لعلي أجد انساناً يشكو من مثل شكواي، الا أن كل واحد من الذين عرفتهم كان يلقي بحقيبة سفره وراء الباب، لتكون في متناول يده متى شاء أن يلتقطها من جديد، ويشد الرحال الى حيث يجد كسباً أكثر. تمنيت أن ارى انساناً ينظر الى تراب أرضه ويتحدث عن بيوت القرميد المتناقصة برنة حنان. تمنيت أن أحظى بواحد يستنشق الهواء ويقطف الأزهار ويروي ظمأه من الجداول والينابيع، تمنيت أن اسمع كلمة حب واتحسس عاطفة تطوق اسم لبنان، غير انهم كلهم لا يتلفظون باسم هذا البلد الا في مجال الفخر، ولأنهم يجدون الكسب من هذه الأرض، ويلوح المال الوفير من وراء الأفق.

ورويداً رويدا بدأت أستسلم الى لجة الضياع وراء بابي المغلق،

وكدت أصاب بالصمم من سكون الكون الذي كنت أحيا في فراغه. وذات يوم سمعت طرقة خفيفة على بابي، فلم أتمالك نفسي وهببت من عزلتي لأجد رجلاً يحملق في وجهي ويلوح لي بأمل مشرق، ففتحت الباب قليلاً ولبثت أنصت الى حديثه وسرعان ما أصابتني العدوى، وانتقل اليَّ ايمانه بوطنه وبأرضه وبشعبه. وفتحت الباب أكثر واكثر حتى أصبح مواربا، فخرجت من بين دفتيه الى موعد خيل الي انه كان بانتظاري فيه منذ الأزل، ليدلني على الطريق . .

طريق الانتماء الى نفسي، ومن ثم الى وطني. ومن حيث لا أدري اشتبكت الارتباطات، وأخذت عاطفتي نحوه تتفتح كلما ازداد فهمي لطبيعة الأرض التي أعيش فوقها، وطبائع البشر الذين ولدت بينهم. وكلما كان الحديث يتشعب بيننا ويتعمق، كان يتمكن ويتوثق الرباط بيني وبينه. ووجدت نفسي منساقة إليه، مبهورة مسحورة بشخصيته الغامضة.

وكنت أتساءل عن كنهها وأفتش عن هذا الشيء الذي يخيفني منها بقدر ما كان يجذبني اليها لكي أستطيع أن أجد وصفاً للعلاقة التي نمت بيني وبينه. . . عشرات من التساؤلات كانت تدق الباب الذي طرقه هو ذات يوم، وتلقفها الزمن ورد على بعضها، وترك البعض الآخر سراً غامضاً. وكأن الوجود لا يوجد الا وقد أكتنفته الأسرار ولفه الغموض. وفي كل مرة، وفي كل لحظة كنت اشعر اني قد خطوت خطوة الى أعماقه كنت اصطدم بعقبة ما، عقبة لا أتبين ملامحها ولا سبيل الى لمسها، وكأنها حائط شفاف يهبط بيننا فيحول دون وصولي الى مرحلة جديدة.

وطالما شعرت بذلك الحائط ينتصب في حلقي، فيخرسني عن نطق كلمة صغيرة بودي أن أقولها وأحس بإلحاح غريب يدفعني الى ان أقولها

وأكاد اقولها . . فلا أستطيع! لقد كنت أعيش معه وأنا بعيدة عنه، أعيش معه بوجداني وبعاطفتي، أعيش بصمت لا أنطق ولا أعبر، ولا أحكي له عن عشرات الحوادث والمشاكل والخواطر التي تولد وتنغل في جوفي، ولا أخبره عن الأشجار والطيور السابحة في فضاء عالمي، ولا أصف له كيف أصبح وجداني ينبض بالحياة، ولا أقول له إني اكتشفت هذا الشيء الجميل الذي اسمه الحياة. لوحدي كنت أحس بالحياة تتدفق في عروقي ومشاعري ووجداني، فكنت أحس بها وكأني انطقها. وكلما تهت في رحاب العالم الذي يتولد عن لقاء عينينا كانت ترتعش كل نسمة من نسمات وجودي، اذ كنا نسكب في لحظة واحدة قصيرة أياماً وشهوراً. . نفس الأيام والشهور التي تضيع هباء وتتفتت هدراً عندما يعيشها الآخرون. ولقد بلغت مثل تلك اللحظات من الروعة والقدسية ما كان يجعلني اتراءى لنفسي ساجدة أمامها بخشوع، وأنا أكاد أختنق من عجزي عن كشف خفاياها.

وظل وجدي وولهي بكمال يتململ في جوفي حائراً متخبطاً يبحث عن منفذ، ولا منفذ لعواطفي في حوارنا الصامت، حتى كانت تلك الليلة التي خرجنا فيها معاً من عند ابراهيم وليزا، وقتها اكتشفت أني قد وصلت الى الذروة.

وكأني كنت شيئاً وأصبحت انساناً، وكأني كنت انساناً ناقصاً فوجدت الدرب الذي يوصلني الى انسانيتي الكاملة.

ولا أدري كيف حدث فنطقت شفتا كمال بعد طول صمت وسكون، نطقت بحديث خيل إلي أني كنت بانتظاره منذ اليوم الذي هبطت فيه من سر الخلق الى الوجود. وتدفقت عطاء فأفرغت عواطفي كلها وشوقي كله، شوقي الذي يخمد ولا يكل. إنه حالة استمرار أبدي.

ومنذ تلك الليلة التي نطقنا فيها بما لا تقوله مئات الكلمات وآلاف الجمل التي ينطق بها الآخرون، منذ تلك الليلة لم يعد يهمني الوقت الذي كنت أحرص على استبقائه، لئلا يجري آخذاً معه تلك اللحظات التي وجدت لكي نملأها حديثاً وكلاماً. لم يعد يهمني الوقت الذي أفلت في الماضي من بين أيدينا، ضاحكاً ساخراً فاتحاً شدقيه على مصراعيهما ليبتلع في جوفه كل الكلمات الخرساء التي لم ننطق بها.

وكانت فترة.. هي أروع ما عشت في حياتي!

كنت ألمس السماء بيدي كلما تطلعت الى نجمة السماء فألفيتها تبتسم معي، وتفتح ذراعيها وتتلقفني أنا والعالم الذي التقي فيه كمال، فتقودني الى درب الورود، والى درب الأشواك.. وهناك أرى الحياة على حقيقتها!

وأخذت الكلمات التي أقرأها في كتبي تتبدل، وأصبح لها معان تحركني، فترميني من أعالي القمم تارة، وتنشلني من القاع مرة أخرى. وتكتشف لي عالم الغيب المحجوب خلف عقلي الساكن ووعيي الراكد. وأيقنت أن المعرفة لم تكن مجهولة لدي من قبل إلا لأني أنا كنت مجهولة بالنسبة الى نفسي، غير مدركة ولا واعية لوجودي. كيف كنت سأفهم ماذا يقال اذا لم يكن لدي أنا رأي أقيس بالنسبة إليه؟

وعندما أصبح للمعاني أحاسيس ترادفها في نفسي، بدأت قيمي تتبلور، ومن خلال كمال، من خلال خطواته وخلجاته وآرائه، تبين لي الدرب الذي أريده أن يمشي فيه كي يصل القمة. ولم تكن القمة هي فكرتي، ولا كمال نفسه كان فكرتي. كمال هو الواقع الذي تتجسد فيه الفكرة. وما لبثت أن تقوقعت في اطار لا يحتوي سوى مجد كمال، وأخذت احجام الآخرين تتضاءل في لوحتي الى مجرد أرواح انفخ فيها كمال ومبادئه، ولم يعد يهمني الآخرون كبشر أتفاعل معهم أو أتضايق

منهم، بقدر ما كانت تهمني طاقاتهم واستعدادتهم للعطاء من أجل تجسيد الفكرة، واستبدلت حزني السعيد الذي كنت أتشبث به كصخرة نجاة بهدفي المشترك مع كمال، ووجدت في تلك الفكرة ارتباطي بالحياة، وأحسست انها الأمل الذي يحميني من القاع ومن النهاية. وتحول الضيق الذي كان يتجمع في صدري ويضيق علي الخناق، تحول الى طاقة جبارة رمتني في الحياة لكي ألتهم الأيام وأرنو بلهفة المتفائل الى الغد، وغدوت وأنا بعيدة عن خوفي من النهاية، ومن ايماني السابق ان ما من شيء في الدنيا إلا وينتهي. حتى الحب أقوى وأروع مشاعر الانسان، كنت أعتقد بأنه مهدد بالنهاية أو بالتطور الى أحساس لا يعود هو ذاته. أما وقد ارتبطت عواطفي برسالة ما، فإن الطاقة الجبارة التي تتولد عنها أصبحت في أمان، وأمست كفيلة بأن توصلني الى المطلق إلى حيث يتواصل الإبداع والخلق.

وكان كل فجر جديد يطل علي، يريني كم من الوقت أضعت وأنا أبحث عن نفسي من خلال الآخرين، فأقول اني أريد أن أصبح واحدة أخرى، لكي أبدد ولو القليل الضئيل من وحدتي، أو أبحث عن ابتسامتي في وجه الآخرين، وأقيم كلامي من خلال ردود فعل الآخرين. لقد ضللت طريقي بذاك الأسلوب، حتى وجدت كمالاً. لقد دفعني الى ان اكتشف نفسي، الى ان عرفت بوجود الأنا فيَّ، وتراءى لي أخيراً الخيط الرفيع والحائط الشفاف الذي يحيط حدود فرديتي، فيفصلها عن الآخرين فتتكرس وجوداً بحد ذاته. وأنا لم اكتشف حدود فرديتي لمجرد امتلاكي جسداً حياً، وعروقاً وقدمين ويدين، ان جسدي ليس سوى الوسيلة التي أعبر بواسطتها الى عالم الواقع. أما فرديتي، فاني أحس بها من فرط رغبتي العارمة الطاغية في أن أحيا من أجل شيء ما. لقد بت أحس بها كل يوم، وكل ساعة، كلما تطلعت الى نجمةالسماء، أو مشيت

في الطريق، بت أحس بها وكأنها تعتصرني عصراً وكأنها مارد هائل يتململ في جوفي يكاد يخنقني، اذا لم أبادر الى التعبير عنها.

وكانت تلك الطاقة الجبارة المستقلة ملك كمال، وكنت أتساءل كيف أستطيع أن أمنحه اياها لكي يستعين بها في دربه الى القمة، وفي معركته الغامضة مع نفسه، كنت أريد أن تكون طاقتي «الوسيلة الفريدة» التي تعبر له عما احس نحوه. تلك كانت وسيلتنا الوحيدة للتعبير، والطريق الوحيد الذي يجمعنا لكي نبني معاً شيئاً ما. وكلما كنت استمع الى كمال وهو يتحدث في السياسة، كان تعلقي به يزداد، فأحس بخوف عجيب، خوف يبلغ حدود الهلع، إذ ألمس الى أي مدى يتعلق مصيري بنجاحه، حتى أصبح سبب وجودي مهدداً بالزوال إذا لم يصل هو الى القمة التي أريدها.

وبمرور الوقت بات تعلقي به معقداً مركباً، تتداخله شتى العناصر المتشابكة، المرتبطةبأسلوب ملتو، غامض. وكانت الأوقات التي يتحدث فيها عن المواضيع الوطنية ـ السياسية، أروع اللحظات التي أعيشها معه. كنت أحس بحقيقة جوهره تندفع الى الخارج، وكأنها الاويقات الوحيدة التي تندفع حقيقته الى الخارج. وكنت استمع اليه صامتة مأخوذة بالروح المتدفقة التي يملكها. وكأن تلك الروح لا تتداخل وإياه إلا عندما يتحدث في ذلك الموضوع، فتتولد عندئذ براعته ويتكشف إبداعه، ولا يملك المرء إلا أن يشعر كالمسحور أمامه. وطالما تمنيت أن تكون سلطة البلاد شيئاً مادياً موجوداً أمامي، في متناولي، وليس علي من جهد اكثر من أن أمد اليها يدي، فألتقطها وأعطيها له! ولو كان بالإمكان أن يحدث هذا لكنت شعرت اني قد حققت رسالتي في الحياة، وأن سبب وجودي فيها قد اكتمل. إلا أن عكس ذلك كان

يحدث لأني في مثل تلك اللحظات بالذات، في اللحظة التي أشعر بانصهاري فيه، كان يهبط الحائط الشفاف، وتتوسع الهوة بيني وبينه. هو الانسان وأنا الإنسان الآخر، ويصرخ الواقع المتناقض بوجهي ساخراً. فقد كان كمال يرفض أن يناقش معي مجرد فكرة عمله السياسي، وكان صده يسبب لي أعراضاً نفسية غريبة. كان ينتابني الدوار مثلاً. وكنت احس بالطاقة المشتعلة تترجرج في جوفي، تبحث عن منفذ وعن خلاص، وأنا ازاء هذه الحالة لا أملك ثمة حيلة، فأظل أنصت اليه بصمت متوحش يغلي. والغريب اني كنت واثقة كل الوثوق بأنه هو الآخر يعاني من وحش مماثل يخور في جوفه. كان حدسي يؤكد لي أني اعاني اندفاعاً يطابق اندفاعه، وكنت أحس بحرقته وهو يتحدث بعصبية المكبل المكبوت كلما تعرض الى مناقشة حول وضع البلاد. ولكني لم أفهم ابداً سر القوة الرهيبة التي تمنعه من الارتماء في خضم المعركة،.مع العلم بأنه كان دوماً ينفي رغبته في العمل السياسي، بحرارة لم تفلح مطلقاً في إقناعي. ولا صدقت سخريته من الناس الذين يتناقلون اسمه في مجالات العمل الوطني، بالرغم من أنه كان يعطيني البراهين ويقدم لي شتى الحجج، وكأنه يريد إقناع نفسه قبل إقناعي بأنه بعيد، بعيد عن كل هذا. وظل حدسي أقوى من منطقه ومن حججه، ظل حدسي إيماني ودليلي بأن دم كمال الذي يجري في عروقه ليس بالدم العادي، إنه دم مشحون بوله جنوني خارق، لا يتحرك ولا يحيا إلا بين جدران سياسية.

وفي ذات ليلة كنا نتسامر في إحدى السهرات، حدث لي أمر عجيب! وكان كمال كالعادة محور الحديث، ونقطة الانجذاب في الجلسة. وكانت جلسة صاخبة تعددت فيها الآراء والاتجاهات، وعلا الصراخ، وتشابكت الكلمات والجمل، ولا أدري كيف ابتعدت عن هذا

كله، ووجدت نفسي اتأمل تفاصيل في شخصه، وأكتشف اشياء غابت عن اهتمامي. نوع القميص الذي يلبسه، والحروف الاولى من اسمه التي اكتشفت بأنها مطرزة على القميص. حذاؤه مثلاً، حذاؤه الأسود نبهني الى أني لم أكن قد رأيته إلا بحذاء أسود اللون. ومن حذائه قفزت عيناي الي يديه، وأخذتا تلاحقان حركات أصابعه العصبية، ثم هبطتا الى ساقه، وتسمرتا على ذلك القسم العاري وقد ارتفع عنه البنطلون قليلاً بعد أن رفع رجله الى نصف ثنية على المقعد الذي يجلس عليه. وكأني فوجئت أن يكون كمال إنساناً له جلد ولحم وساق، وكأنه من قبل لم يكن سوى فكرة مجردة عن الجسد. وانبثقت في رغبة حادة أن امتلكه كرجل وكجسد. لقد كان بودي أن أقوم من مكاني، في تلك اللحظة بالذات، وأرمي بذراعي حوله، الى أعلى خاصرته بقليل، وأقبل الشامة الصغيرة على خده، ثم أشم أنفاسه من انفه ذي الانتصابة الشامخة. وإذ بعيني كمال تتوقفان عندي خلال ومضة خاطفة فقرأت الدهشة فيهما، لعله أحس برغبتي فيه، ولعلنا نحن الاثنين معاً قد التقينا خلال تلك الومضة فتكشفت لنا خبايانا وضرورة لقائنا وانصهارنا في حوار ناطق عميق.

وعدت الى البيت بقوة منتعشة، انبعثت من رغبتي فيه، ومن رغبتي في أن أضحي بكل شيء وبأي شيء لأراه حيث يجب أن يكون. وفي الليل لم يقرب النوم جفوني، وشعرت بجسدي يتحرك ويؤلمني من شدة توقي اليه. ولم يعد لدي شك بأنني قد وجدت الرجل الذي يستحق أن أتلاشى فيه، غير أني كنت أعلم أن لا سبيل الى ذلك، ولا أمل في أن أذوب فيه، ولا بمقدرتي حتى في الوصول اليه. لقد كان الغموض أوضح ما في علاقتنا، ولا حتى غلالة شك كانت تتسرب الي، لكي أتخيل، حتى في أبعد أحلامي، ان كمالاً يمكن أن يتخطى الباب الموارب ما دام

هو نفسه كالباب الموارب، وذلك الحائط الشفاف لا ينفك يهبط كلما أوشكنا على الالتقاء الكامل ويتلاشى كل أمل في خلق الكلمات التي تجعل من الاثنين واحداً. وبالرغم من وضعنا الفريد هذا، كانت تغمرني السعادة، وكأنها كانت أكبر من أن أتحملها، فكنت أحس بالخوف، خوف أعرف أنه لن يزول ولن يذوي.

وظلت عواطفي وأفكاري تلك الليلة تتشابك وتتناقض، الى أن تراءت لي عيناه الصافيتان، وتمنيت أن أمسك يده التي طالما امتدت لتلتقي بيدي، فكنت في البداية أخشى هذا اللقاء لئلا انزلق الى لقاء أكبر. سابق لأوانه. وأفقت في اليوم التالي، وكأني قضيت الليلة الماضية معه. وامتدت يدي الى التليفون، وعندما أخذ اصبعي يدير رقمه تلقائياً، سمعت دقات قلبي تتراكض، ورأيت يدي ترتعش، فتساءلت واحترت، متى، متى ستكف يدي عن الارتعاش كلما لاقت طريقها الى يده، أو كلما امتدت لتمسك التلفون وتحدثه، ومتى تنحبس دقات قلبي في مكانها فلا تتقافز، ولا تتراكض كلما رأيته أو سمعت صوته؟

وعندما انسابت رنة الحنان من نبرات صوته الجافة وهو يحدثني، تملكتني رعشة حية وشعرت بلهفته للقائي تسابق لهفتي اليه، فحددنا موعداً. وأعدت سماعة التلفون الى مكانها، وجلست اسخر من تساؤلاتي، وكأني مندهشة لرغبتي من التخلص والتغلب على تلك الرعشة، أليست هي كل ما يملأ وجودي حياة؟ أليس هو الوحيد، الوحيد الذي أيقظني ودفع بي الى الحياة فوصل بي الى أعمق أعماقي؟

وكان لقاؤنا كالعادة في تلك القهوة النائية البعيدة عن الآخرين، ولا أدري لماذا وصلت الى هناك وأنا منقبضة النفس، أرتعش كالغصن الهزيل. لم تكن لدي أية رغبة في البقاء. وكان هو في انتظاري، والتقت

عينانا قبل أن نلقي التحية، فرأيت في عينيه غلالة إحساس جديد تشع منهما، وكأن شيئاً جديداً قد ولد بيننا في الليلة الماضية. وعندما قال لي «هيا بنا من هنا!»، قمت لتوي وأنا مدركة انه هو أيضاً لم تعد تكفيه جلساتنا الصامتة. وأمسك بيدي، فلحقت بخطواته وأنا واثقة اننا نحن الاثنين معاً لم نعد نطيق الاطارات الشاسعة التي تلزمنا بالخرس وبالصمت. وركبنا السيارة، وانطلقت بنا ونحن نتكلم عن أمور عادية سطحية، كانت تخفي انتظاراً رهيبا، فيه قدر كبير من اللهفة، ومن التوقع ومن الخوف.

وأخيراً وصلنا الى المكان! ومن خلال ارتباكي ودهشتي أخذت أتفحص محتويات الشقة التي وجدت نفسي فيها. وكنت أخاله معتاداً عليها، فاذا به حائر سارح بين أثاثها مثلي.

وكأنها كانت المرة الأولى لكل منا، فلذنا بالصمت وجلسنا متقاربين. وسرعان ما ألفنا شبح الظلمة، وكأنه أراد أن يحمينا من دنس العالم الذي سرق رجلينا الى أرضه، وتلاصقنا في جلستنا، تائهين منقطعين كلياً عن عالم الآخرين. وكان سكون عجيب يخيم علينا وليس من حوار بيننا سوى ذلك الذي يطل من عينينا. وما لبثت أعصابي أن ارتخت، وتبخر الضيق من صدري، وألقيت رأسي على كتفه، ثم رفعته الى عينيه، وهناك تهت في معانيها وأخذت أنهل كلمات رقيقة من بين شفتيه. وفجأة سألته:

ـ كمال.. هل تفعل هذا مع غيري؟

تنهد وقال:

ـ ألا تعلمين بعد أنك لست كغيرك بالنسبة لي؟

قلت :

ـ ولكنك قد لا تدرك معنى ما يحدث بيننا ، قد يكون هذا أمراً أنت معتاد عليه . أما بالنسبة لي فهو عصارة وجودي لأنك أملي وهدفي ، ومن خلالك أنت سيتحقق وجودي ويكتمل ارتباطي ببلدي . أنت لست مجرد رجل يا كمال . .

أنا أرى بلادي كلها ، لبنان بأسره من خلال عينيك .

أجاب :

ـ أفصحي أنا لا أفهم ، لا أفهم .

قلت له :

ـ أتذكر حين قلت لك إني لا أستطيع أن أخلع ثيابي دفعة واحدة فأكشف عالمي بالتحدث عنه ، هكذا بكل بساطة؟

وتنهد طويلاً تلك المرة ، وتأملني برهة وهو ما زال يبحث عن شيء ما في وجهي . وشعرت بالباب الموارب يضيق علي . وقال :

ـ جاكلين ، يا عزيزتي ، أنت تعرفين كم حاولت أن أصمد بوجه علاقتنا لكي لا أنزلق فيها . وأنت تعلمين كم من المرات تداركت نفسي قبل أن ألمسك بينما كنت في الواقع أتلهف اليك ، كنت أريدك من منبت شعرك حتى أخمص قدميك ، أما زلت تذكرين؟

وظللت ساكتة .

ـ جاكلين ، أنا أخاف عليك ، من نفسي ، ومن ارادتي .

وأصابني الجزع وهمست :

ـ كيف تخاف علي من ارادتك؟

ـ ألم تفهمي سر ارادتي القوية؟ ألا تدركين اني أمتلك زمام نفسي الى حدود مطلقة. ولكني لم أصل الى تلك القوة الا بعد أن دفعت ثمناً باهظاً جعل مني رجلاً ناقصاً.

وكنت مشلولة، ليس بمقدرتي أبداً أن أتكلم.

ـ أنا رجل بدون عاطفة يا جاكلين.

وهبط قلبي وخيل ألي ان دقاته ستمزقه وتمزقني معه.

ـ في وجودي وله واحد، ومن المستحيل أن أشعر بغيره مدى حياتي.

وأخذ الدوار يلفني معه وخيل الي أني سأموت.

ـ أتدرين من يمتلك ولهي هذا؟

عندئذ. لم أعد أحس مطلقاً.

ـ إنه أبي!

قالها وكأنه قد لفظ اسم قديس، أو إله هو فوق آلهة الوجود، قالها وكأنه راكع عند مذبح كنيسة، وقد تصاعدت روحه الى قمم مقدسة.

ولبثنا صامتين واجمين برهة طويلة، وهو منكس الرأس غارق بالانفعال. وفجأة تطلع الي وقال بتمهل:

ـ جاكلين، هل تدركين مغزى كلامي؟ لقد بحت لك بسر هو كنه وجودي. لقد كنت تقولين انك لا تستطعين أن تتعرى أمامي. . ولكني قد تعريت أمامك مثلما لم أتعر أمام أحد من قبل.

ولم أعرف ماذا أقول، وأنا ارى امامي غير الرجل الذي عرفته طيلة

الأزل الذي جمعني به. كانت أمامي طاقة جبارة مفعمة بطيبة نادرة. وأيقنت عندئذ انه بالفعل ليس مجرد الرجل الذكي الذي تتحدث عنه اليوم المدينة بأسرها، انه أكثر من هذا بكثير، إنه انسان خارق. تطلعت اليه فرأيت وجهاً شفافاً يشع قوة، يفيض هياماً وينبض عاطفة. وقال:

ـ هل تسامحينني يا جاكلين؟

ودهشت.

ـ جاكلين، هل تسامحينني إذ ليس لدي قلب؟

ودهشت، دهشت ان يسألني مثل هذا السؤال. إنه سؤال لا يجاب عليه بالكلمات، بل ليست هنالك من كلمات تستطيع أن تنقل اليه المشاعر التي كنت أحس بها. لقد تحولت كلماتي بأجمعها وتكورت ضمن احساس، حتى وجودي بكافة أسئلته وأجوبته تحول الى مجموعة أحاسيس، وكنت أتطلع اليه وهو ينتظر جوابي، وسرعان ما بانت في عينيه تباشير الانتفاضة التي كانت تتأجج فيّ، فاذا بوجودي يذوب في عينيه ومعها تبخر كل منطق من وجداني، واقترب جسدي من جسده، وقد تفتحت كل نسمة من نسماته، وانصهر جسده بجسدي وضاع كل منا في الآخر، عند ذلك اخترقت روحانا الحائط الشفاف، وتصاعدت روحي لتذوب في روحه، وضعت في غيبوبة لملمت معها معاني الوجود بأسره ولذة الكون بأجمعه، واختبأ الزمن وراء تجربتنا، وكأنه يفسح لها ويعطيها الحق في أن تحدد ساعات الأيام ولحظات الليالي. وتلاشى كل وجود ما عدا الوجود الواحد الذي ولدته تجربتنا.

وعندما استفقت أحسست بحدودي تعود الي ولكنها سجنتني هذه المرة في اطار جديد، لقد كان اطاراً كاملاً هذه المرة لأن تجربتي كانت

بمثابة المعجزة التي أخرجتني امرأة كاملة واستطاعت أن تولد وحدة، ما كان بالإمكان أن تصبح في حيز الوجود، الا بعد أن تنصهر بوجود آخر، ذاك الانصهار المذهل.

واستكنت الى صدر كمال واحاطتني ذراعاه وهو لم يصدق بعد اني قد سامحته اذ قال:

ـ هل سامحتني يا جاكلين؟

فابتسمت.. ابتسمت لاني لم أصدق أنه بلا عاطفة! ولم تكن من قوة في الكون كله لتقنعني بأن الانسان الذي يعطي هكذا، هو انسان بلا عاطفة! بل هالني العالم الوحيد الذي يحيا فيه لوحده، وأيقنت مدى قوته بعد أن تحسست مدى حاجته الى كل ما يحرم نفسه منه. وعاد يلح بالسؤال:

ـ جاكلين.. انت لم تسامحيني.. جاكلين اغفري لي.. ماذا سأفعل الآن، وكيف فعلت بك هكذا؟ جاكلين أنا لا أريدك أن تتألمي.

فأجبته بهدوء:

ـ كمال.. لقد سامحتك حين أعطيتك نفسي.

عندئذ فقط شعرت به قد استراح. أما أنا فقد تلمست ذروة سعادتي، تلمستها بعد ما انقشعت الغلالة التي كانت تلفه بالغموض. ورضيت أن أستسلم الى رغبته في الحفاظ على قوة إرادته، وتركته يغلق عواطفه في قاع وجدانه، فلا يفتحه ولا يفسح له حق الحياة لأنه آمن بحياة أخرى، هي تتمة وجود أبيه.. آمن بها ليولد ابنه.. ابنه الفكرة التي يريدها أن تترعرع وتكبر فتولد فكرة أخرى.

وتركت كمالاً تلك الليلة وأنا لم اعد جثة! لقد ولدت لتوي. لقد خلقني هو. وكأني في الحقيقة خلقت ووجدت وعشت حياتي كلها أتنقل من بلد الى بلد أتفرج وأرى، أتفتح على الدنيا وأتعلم، فتدخلني آراء وتولد في جوفي مشاعر وأنا لا أدري ان كل هذا يحدث لي، وكأن كل هذا قد حدث بمنأى عني وكأنه حدث لواحدة أخرى.. هي غيري.

أما أنا فلم أولد ولم أخلق سوى الآن، لأني شعرت به يختلط بوجودي وبكل نسمة وبكل خلجة من خلجاته فاستطعنا أن نتخطى الآخرين! بل فعلنا ما هو أعظم وأروع من ذلك، فقد ثقبنا الحوار الأخرس الذي كان يلجمنا ووجدنا منفذاً لكلينا، ونحن نعلم أننا سوف نعود الى حدوده.

لقد أعطاني كمال كل شيء. ولكنه في الوقت نفسه منع ي كل شي. لقد أعطاني فرديتي فانغلقت وراء أبوابها.

وانتصب جدار بين وجوده وفرديته ووجودي وفرديتي، وليس بيننا سوى باب موارب نلتقي من بين مصراعيه. لقد ارتضى لحياته درباً من المستحيل ان أخطو الى صلبها، فلا مكان لي فيها لأنها استحوذت على وجدانه بكافة تفاصيله.

وتأكدت أننا سنظل نكتفي بوسيلتنا الخاصة في الحوار والتعاطي.

لن يهمني ان الآخرين لا يفهمونها، طالما انني وإياه نحس بها، بل ونعيشها ونتلاشى عندها!

٧

قالت لي نجلا:

ـ أنت لم تسامحني بعد، منذ تلك المرة التي أوصلتني فيها الى البيت. أنت ما زلت غاضباً مني، أليس كذلك، قل، أليس كذلك؟

فأجبتها:

ـ كلا يا نجلا، لست غاضباً عليك، إني حزين للحالة التي وصلت اليها. كنت آمل أن ارى من جديد تلك الفتاة البريئة الطيبة التي عرفتها في شبابي.

ـ لقد ذهبت تلك الفتاة يا كمال، راحت وماتت وبكيت عليها حتى جفت دموعي كلها. دعنا ننساها الآن، دعنا نتصرف ازاء بعضنا كما لو أنها لم توجد اصلاً!

ـ كيف قتلتها يا نجلا، كيف طاوعتك نفسك أن تقضي عليها وعلى أملك؟ كنت أظن أن لديك أملاً كبيراً في بعثها من جديد؟

ـ لم أقتلها أنا، فؤاد هو الذي قضى عليها، فلفظت أنفاسها الأخيرة عندما تجرأت على استرجاع حريتي وكرامتي.

واحتضنت بقايا نجلا وقلت:

ـ ليتك ما فعلت ذلك ولا أملت في حياة جديدة!

ـ ولكنني اليوم صادقة مع نفسي، أنا أعرف على الأقل اني اصبحت هكذا.

وصمتنا برهة ثم قالت نجلا:

ـ وهل كنت تظن أن الناس كلهم مثلك يا كمال، يستطيعون المحافظة على جوهرهم وروحهم الأصيلة؟!

فضحكت ساخراً:

ـ أنا؟ هل تعتقدين ذلك حقاً؟

وأجابتني بما تبقى من دموع:

ـ أجل يا كمال، أجل.

لقد كنت أعرف واحداً يعيش دون زيف يا نجلا، وهذا ليس أنا، إلا أنني اليوم أمسيت أعرف اثنين!

وكانت رعشة خفيفة هزتني فتذكرت جاكلين!

وقالت نجلا:

ـ قبلني يا كمال، قبلني لعلك تعيد الي روحي.

فالتفت اليها وقد اجتاحتني موجة مفاجئة من الغضب، فأمسكت بكتفيها اهزها:

ـ أنا لا أعطي الناس زيفاً يا نجلا، أبداً، مطلقاً!

وبغتت نجلا وظلت تبحلق في وجهي فزعة مذعورة، وكأنها تراني لأول مرة. ثم أفلتت من بين يدي واختفت بين الناس ولم أعد أتبينها بعد أن أصبحت انا أيضاً، مثل «الآخرين» حسب تعبير جاكلين.

وتذكرت جاكلين، لقد كنت جافاً معها وأنا أحدثها بالتلفون صباح

اليوم، فقد كان بودها أن تراني عند ابراهيم وليزا، فقلت لها إني مرتبط بموعد يتعلق بعملي. يا ترى لو عرفت بوجودي هنا، في هذه الحفلة التي تضم أشباح سياسيين ورجال أعمال مهترئين، أكل الانحلال كل ما تبقى لديهم من جوهر وانسانية، ولو رأتني منذ قليل وأنا أحيط تلك الحسناء بذراعي عاتباً ضاحكاً، يا ترى هل كانت ستفهم؟ هل كانت ستصدق اني هكذا، اكثر مما أنا الرجل الذي تعرفه هي؟

وجاءت الي الحسناء اياها وقالت وهي تمط شفتيها بدلال :

ـ لماذا هربت مني؟ ألا يكفي انني لم أعد أراك مثل ذي قبل؟

وعادت جاكلين تحتل أفكاري، هي أيضاً قالت لي انها لم تعد تراني مثل ذي قبل، ولقد شددت بيدي على سماعة التلفون وأنا اقول متأنياً وقوراً :

ـ وماذا بوسعي أن أفعل، انني منشغل جداً في هذه الأيام. فأجابتني :

ـ أعرف، ولكنك أوحشتني!

قالت ذلك باندفاعها المعهود، وانسابت الي عواطفها بالرغم من أني كنت قد شعرت بغضبها وهي على طرف السلك الآخر من التلفون. تذكرت كل هذا وابتسمت وانا أحتضنها بوجداني.

فقالت الحسناء التي امامي :

ـ مالك تبتسم هكذا؟

واقتربت مني وأمسكت بثنية بدلتي ووضعت أصبعها على انفي وقالت بدلال :

ـ أنت انسان لا يُحتمل!

وأجبتها :

ـ صدقت، أنا بالفعل لا أُحتمل، وليس هنالك ما يجبرك على تحملي.

وامتعضت كما كنت أرجو أن يحدث، وكدت أتركها الى زاوية أخرى من الزوايا المتعددة في حفلات فؤاد نادر، غير أن فؤاداً كان قد لمحها وهي تداعب انفي واقترب منا :

ـ حسناً تفعل بلهوك هذا!

فاستدرت اليه بعصبية قائلاً :

ـ وماذا تقصد بذلك؟

فقال باستهزاء :

ـ أليس هذا أفضل من اجتماعاتك اليومية مع أولئك الصعاليك؟

ـ أبناء الشعب صعاليك؟ من أين أتيت بمالك يا عزيزي؟ أليس من ابناء الشعب الصعاليك؟

وقهقه عالياً ثم قال بنبرة لينة :

ـ أين كأسك؟ قل لي ما هي حقيقة هذه الإشاعات عن جتماعاتك؟ تعال الى زاوية بعيدة عن الضجيج لنتحدث.

وانصعت الى فؤاد، اذ لم يكن مأربي من حضور الحفلة الا التعرف الى أي مدى وصلت الاشاعات عن قيامي باجتماعات دورية. لقد صدق ظني عندما كنت اتباحث مع خليل بك عن تلك الخطوة، لقد قلت له إني لو أقدمت عليها لانتشرت أخبارها كالنار.

وبادرت فؤاداً بالسؤال بلهجة مستاءة مستنكرة، تشوبها بوادر الغضب:

ـ من أين أتيت بمثل هذه الشائعات؟ لقد أصبحت ترهقني بشائعاتك يا فؤاد، ماذا تريد مني الآن؟

ـ لا تغضب.. أرجوك لا تنفعل هكذا. إنك تتصرف وكأنك آخر من يعلم بهذه الشائعات!

ـ لا تبدأ بنصحي، كل ما أريد أن أعرفه هو من أين سمعت هذه الشائعات!

ـ أما زلت مصرّاً على تجاهلها؟

ـ ماذا يهمك انت اذا كنت اتجاهلها أم لا؟ كل ما أريد أن أعرفه، من أين سمعتها؟

وفقد فؤاد سيطرته على أعصابه، واستحوذ عليه الغضب وصاح:

ـ أتريد أن تعرف من أين سمعت الشائعات! إذهب الى الرئيس واسأله.

ـ هل الرئيس هو الذي أطلقها؟

وصرخ بي فؤاد:

ـ كمال! بالله لا تتصنع السذاجة.

فأجبته وقد لانت لهجتي وأصبحت نبراتي اكثر هدوءاً:

ـ ماذا تريدني أن أقول؟ إني اسألك سؤالاً وأنت ترفض أن تفهمني فحوى جوابك.

ومرة أخرى وصلت الى ما أردت، وبلغ ضيق فؤاد باسلوبي في الكلام حداً لم يعد يحتمله، فقال باستسلام:

ـ يا كمال دلني على واحد، واحد فقط يستطيع أن يفهم منك حرفاً!

ـ ولكني واضح وصريح جداً. انت الذي لا يُفهم منه حرف واحد. اسألك عن مصدر الشائعات فتقول إنه الرئيس!

ولا تظن اني استغرب ذلك منه، فهو أصل البلاء الذي تتخبط فيه البلاد.

ـ أنا لم أقل إن الرئيس مصدر الشائعات، كل ما أردت أن أقوله هو إنها وصلته، فكيف تتصنع أنت تجاهلها، أما كفاك محاربة للرئيس؟

ـ أنا لا أحاربه.

ـ واجتماعاتك هذه، ما معناها؟

ـ اذا كنت أبدي رأيي في حالة البلاد، أيكون مغزى ذلك إني أحاربه؟

ـ أخبرني انت ماذا يكون مغزى ذلك؟

ـ إني لست راضياً عن سياسة الحكومة، وأعتقد أن تطرفها سيوصلنا الى حرب أهلية.

ـ إنها فترة غليان سرعان ما تخمد، إنها مشكلة في غاية البساطة.

فضحكت عالياً، وقد لمحت جماعة بالقرب منا تبدو عليهم رغبةٌ في الانضمام الينا فوجهت الحديث صوبهم قائلاً:

ـ تعالوا اسمعوا ماذا يقول فؤاد بك. يقول إن الوضع الراهن لا

يتعدى كونه مشكلة بسيطة، مشكلة في غاية البساطة!

وكعادة هؤلاء الناس في النقاش، أخذوا يتصايحون، متنافسين على ابداء الرأي، وضاعت الآراء بادىء الأمر في لجة من فوضى الكلام حتى أفرغوا جعبهم، عندئذ استمعوا الى سؤال أحدهم:

ـ ما الحل اذن؟

ـ أجاب آخر:

ـ استبدال الحكومة بغيرها.

قلت:

ـ هنا المشكلة الكبرى.

فتساءلوا، وأجبت:

ـ أولاً لأن الرئيس لا يريد استبدالها، وثانياً لأنه لو استبدلها فانه سوف يفسح المجال لمعارضة أكثر عداء من المعارضة الحاضرة.

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ ألا ترون كيف إشتدت الخصومات المحلية، وتباعدت الكتل البرلمانية الى حد لا يفسح مجالاً لمثل هذه الخطوة، لا سيما في الظروف الحرجة هذه؟

وتضعضع فؤاد بعض الشيء وبادر الى ضحكة مفتعلة قائلاً:

ـ ما زلت اصر على ان هذا الأمر بسيط يمكن تسويته بكل سهولة. المال يا أصدقائي، المال يخلق المعجزات!

واستدرت نحو فؤاد، وقلت له:

ـ المشكلة هذه المرة، مشكلة وطنية حقة. ولا تنس يا صديقي ان المال بامكانه ان يخلق الكوارث مثلما يخلق المعجزات. ولم يفهم أحد قصدي سوى فؤاد، فتركته يهضم ما عنيته، وابتعدت عنه، وعن المجموعة كلها. وقضيت برهة وجيزة في الحفلة، ثم انصرفت دون أو أودعه.

وبعدها بأيام كنت أدخل حفلة أخرى بخطوات مترددة، كنت أخشى أن ألتقي بجاكلين هناك. وكان ذلك الخوف يرافقني في الحفلات المتكاثرة في ذلك الحين. الحفلات دائماً تكثر قبيل فصل الربيع، وكأن الناس يشعرون بحاجة الى ان يحتموا ببعضهم خوفاً من فراغ الطبيعة بعد ذوبان الثلوج. الا اني ازاء النشاط الاجتماعي المتزايد في تلك الآونة كنت أحس بذوبان آخر يعتري الناس، ويدفعهم بحمى جنونية الى مآدب اكثر وحفلات أكثر. ولم يكن الدافع سوى الحالة المتأزمة التي أطاحت بلامبالاة الناس فجعلتهم يتسابقون الى معرفة حقيقة الموقف. وكانت كل فئة تسعى وراء ذلك لسبب يتعلق بمستقبلها، فكانت تبحث عن الاتجاه الذي يحفظ لها مصالحها وتندفع للمحافظة عليه، أو إنها تستبدل اتجاهاً بآخر يشي بقاؤه بمتانة منيعة. وأصبحت أدخل على تلك الحفلات كالغريب بالرغم من أني اعتدت عليها وعلى وجوهها ومآربها ونهاياتها، ولكني في تلك الفترة كنت أقصدها وأنا أحس بالغربة التامة عنها. كنت أجيئها من عوالم أخرى، من عوالم مختبئة وراء انحلال طبقتي وتفسخها، لقد كنت آتيها من طبقة تعاني حالة ولادة فكرية!

واستقبلني صاحب الدعوة مدير البنك الوطني بابتسامة صفراء، ان كانت تدل على شيء فعلى الكراهية الدفينة التي خلّفتها الحادثة القديمة، حين انتزعت فيها انطون من بين براثنه. ولكن مثل هذه

الحوادث ليست كفيلة بأن تقطع علاقات الناس ببعضها، بل هي تستمر وتستمر وقوامها لا يتخطى كرهاً دفيناً أو ثأراً مختبئاً. ولقد كان انطون نفسه مدعواً تلك الليلة، ولمحته بعد لحظات من وجودي منهمكاً في الحديث مع ابراهيم وليزا، لأن وجودهما اكد لي وجود جاكلين ايضاً، ولم يكن بمقدوري، ولا كنت أملك الطاقة التي تمنعني من رؤية جاكلين، ولا عرفت تماماً السبب الذي دفعني الى مثل هذه الخوف من مجابهتها. . لعله عجزي عن التعبير لكي انقل اليها مئات المتناقضات التي تفرض عليَّ الابتعاد عنها. هي رمز انسانيتي، هي رمز ضعفي، هي رمز المنزلق الكفيل بأن يدفعني الى التخلي عن التوازن بين شخصيتين، فكيف أقترب منها؟

وقفت في مكاني أحتسي كأسي دون أن أسمع ما كان أحدهم يخبرني به. وقفت أفكر بها وأنا أشعر بأني لست بعيداً عنها. إنها دوماً قربي، والعجيب أن شوقي اليها كان يزداد كلما توغلت في انشغالاتي، وكلما ازداد وجدت نفسي أنكب بحماسة اكثر على العمل. ولعل خوفي من لقائها يعود الى سبب آخر، الى آخر مرة تقابلنا فيها. كانت تبكي، ولم أطق بكاءها حينذاك، لم أطق أن أرى ما فعلته بها، اذ تركتها تتعلق بي، تعطيني، ترد لي روحي، تغذيني. . دون أن أبادلها العطاء. الا ان عطاءها هذا لم يذهب هباء، لأنها كانت تعطيني لكي أسكب عطائي في مكان آخر. وقد كان لقاؤنا في الشقة التي أمست بيتاً حقيقياً لكل منا، تهرب هي من العالم، وأنا أهرب من نفسي وأسرق بعض ذاتي وأتوه، أتوه في عالم الحس البحت، وأشعر بعواطفي تهتز وتتمطى في القاع الحديدية التي سجنتها فيها. وكانت جاكلين في قمة روعتها، وقد أرخت شعرها الطويل وهي تتساءل ماذا ستفعل به عندما يحل الصيف؟ ثم تساءلت

ماذا يكون مصيرنا في الصيف؟ كانت تخاف المستقبل فتحيا كل لقاء وكأنه محور الوجود. هكذا قالت لي واهتصرني أسى شديد لكوني السبب الرئيسي في سلخها عن واقعها وعالمها.

وتذكرت أحاديثنا الطويلة، وكيف كانت تصف لي غربتها ووحدتها وخوفها من المستقبل الفارغ من أي أمل وأية قضية. وكان وجهها يتلألأ حيوية عندما كنت أقول لها أن هذه الفترة لن تطول، وسوف تستفيق البلاد على قضية يفرغ فيها الشعب امكانياته كلها. حينئذ كان كيانها كله ينتعش، حتى قبلاتها كانت تصبح أكثر لهفة وحرارة عندما تستمع الى كلامي، فتردد جملتها التقليدية بأنها ترى لبنان من خلالي. لعل هذا ما كنت أخشاه، وفي الحقيقة عند بداية علاقتي بها، كنت أخاف عليها من ارتباطها الكامل بي، لئلا يأتي الوقت الذي لا استطيع أن ألبيها فيه، ولكني بنفس الوقت كنت على يقين باتر انها لن تعطيني، ولن تجد من القوة ما ييسر لها اقتحام وجودي واختراق أسواري... الا اذا ارتبطت بي ذلك الارتباط الكامل.

أما أنا، فقد كنت ارتجف من برودة العالم الخارجي في آخر لقاء لنا، ولم ألمس حقيقة ما تفعله بي تلك المرأة، إلا بعد أن تركتها. كان وداعنا مؤثراً، وكأنه وداع فعلي بيننا.

إذ طوقتني بحرارة وقالت: «لو ابتعدت عني يا كمال، فإنك كفيل بأن تقضي علي تماماً». كان وجهها يفيض ولهاً وأسى، بينما كنت أنا كلي قوة وفرح. كنت فرحاً بانتصاري على عواطفي، لقد أفلحت في اخماد انفاسها لكي استمد انفاساً متجددة لإرادتي وعزمي.

ستة أشهر مضت على آخر لقاء بيننا، ولكن وجه جاكلين لم ينفك يطل علي، ووجودها ظل يسعدني، وصوتها الرقيق على التلفون دام

يذكرني بأنانيتي. كنت أعلم أنها على اتصال وثيق بليزا، وكان ذلك يطمئنني ويشعرني انها ليست بعيدة كل البعد عني، وكأنها لن تقوى على الانفصال عني ما دامت بين اصدقائي. قالت لي في آخر مرة التقينا: «هل تصدق أني لم أرك منذ شهر كامل؟ هل تصدق أننا لم ندخل هذا البيت لمدة شهر كامل؟» كانت كلها دهشة، وكأنها اكتشفت مدة فراقنا لتوها. إنها كذلك دوماً، تقول أشياء أعرف أنها قد فكرت فيها من قبل، ولكنها عندما تعبر عنها كلاماً يبدو وكأنها اكتشفتها لتوها. كنت احب ذلك فيها، فأقول لها مداعباً:

«أنت طفلة رائعة يا جاكلين.» فتغضب وتصرخ بي مستنكرة.

شريط طويل من الذكريات مر أمامي، وأنا ما زلت في وقفتي، وعدت أتردد في محادثة ليزا. كانت جاكلين تملأ ذهني في تلك اللحظة، فأصبح من واجبي أن أطردها منه. اني لم آت الى هنا لكي ارى جاكلين وأفكر بها، ليس لدي الوقت لأفكر بها حتى خارج هذا المكان، بل حل المشكلة كان ناتجاً عن صراعي مع ارادتي ووجوب ابتعادي عن كل ما يلهيني عن هدفي.

وانتفضت من تأملاتي لأرى ليزا تحملق فيَّ. وكدت أصرخ بها:

ـ ليزا! لم أتوقع أن أراك هنا، اين ابراهيم؟

كنت مدركاً ما وراء نظرات ليزا العاتبة، إن غيابي عنها وعن زوجها لم يكن السبب مطلقاً، فهي اعتادت على زياراتي المتقطعة، جاكلين هي السبب. وكأن ذلك جعلها لا تخبرني أين ابراهيم، وقالت لي بتحد:

ـ إن جاكلين هنا، هل رأيتها؟

وألقيت نظرة عامة على الحضور، وتوقفت عندها، بانت أمامي من

بين عشرات الناس. لم تكن بعيدة جداً، على بعد ثلاث خطوات أو أربع. كانت تبتسم وتهز برأسها. توقف نظري هناك ومضة، لعلها أحست بي أو أن حدسها القوي، جعلها تلتفت لا أدري بالضبط ماذا حعلها تدير رأسها نحوي. والتقت عينانا خلال تلك الومضة، ثم استدار كل منا بصورة عفوية الى ناحيته، والتفتت اليَّ ليزا قائلة:

- إنها هناك!

وتركتني ليزا وشعرت بدوار يتملكني. لقد هالني وراعني ما رأيت. جاكلين! لم أرها من قبل بمثل هذا الجمال، كانت ترتدي فستاناً أبيض، وشعرها الطويل مرفوع الى أعلى، كانت كالثريا تضيء المكان وتضفي عليه روحاً حية. لقد كانت للآخرين، وأنا على بعد خطوات منها، لا هي تقترب مني ولا أنا أتحرك من مكاني. قوة رهيبة حالت دون لقائنا، واضطرب شيء ما فيَّ، فتحركت على الفور لأضيع بين الناس، ولألتقي بمن هم بعيدون عني.

وسرعان ما عادت اذناي تلتقطان أحاديث الناس، ووجدت زمرة من السياسيين يتناقشون، فوقفت بجانبهم وأمامي رجل يتكلم معي، فأخذت أستمع اليهم دون أن أسمعه هو. وكان أحدهم يقول:

- ما يلزمنا الآن هو رجل يستطيع أن يهدىء الشارع المعارض.

- ولكن مثل هذا الرجل سيكون قطعاً بدوره معارضاً متطرفاً من الصوب الثاني.

- ولماذا لا نبحث عن رجل معتدل له شعبية في الشارع؟ مثل هذا الحل هو الخلاص الوحيد.

- هذه فكرة، ولكن من هو الذي يتمتع بهاتين الصفتين في وقت واحد؟

وأخذوا يستعرضون الشخصيات المؤهلة لمثل هذا الدور.

واحتدم النقاش وتعددت الأسماء والحلول، فمنهم من نادى بالإبقاء على الوزارة السابقة، على أن تعدل سياستها، ومنهم من أبدى يأسه من أية امكانية للإتيان بوزارة جديدة تمثل وجهتي النظر التي انقسمت إليهما البلاد، وتجرأ أحدهم فاقترح حل المجلس نهائياً فاذا بواحد يقول:

ـ ولماذا لا يتألف وزارة من خارج المجلس ومن داخله؟

ولاقى اقتراحه كثيراً من التأييد وراحوا مرة أخرى يستعرضون الأسماء ثم توقفوا عند العقبة الوحيدة، شخص رئيس الوزارة. واذا بأحدهم يقول:

ـ وما المانع في أن يكون من خارج المجلس؟

ومرة أخرى لاقى الاقتراح الكثير من الارتياح والتأييد، وبينما كانوا يتداولون ويتناقشون حول اسم ذلك الرجل انسحبت من مقربتهم وأخذت أفتش عن فؤاد نادر، وعندما وقفنا متقابلين قال لي:

ـ قل لي يا كمال، ماذا قصدت لما قلت إن المال يجلب الكوارث كما يخلق المعجزات؟

ـ قصدت تماماً ما قلت.

ـ يعني؟

ـ يعني؟

وضحكت ثم أردفت:

ـ يعني المال سلاح ذو حدين!

وصرخ بعصبية فائقة :

ـ أرجوك يا كمال، هذا ليس وقت مزاح!

ـ ليس هناك من حاجة الى الصراخ، أم أن اعصابك مرهقة؟

فقال بغضب :

ـ أعصابي ليست مرهقة!

ـ ماذا تشكو اذن؟ لعلك لست مطمئناً الى مستقبل الرئيس، وبالتالي الى مصلحتك معه، ألم تعد مقتنعاً ببقائه على سياسته المتطرفة؟

ـ لقد كانت مصلحتي معه قبل أن يحدث هذا التطرف الذي تتكلم عنه أنت، ولكني لا أفهم ما علاقة هذا؟ قل لي من ساعد على وصول البلاد الى هذا الحد الخطر؟ ما علاقة هذا بالسلاح ذي الحدين؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ اقصد اني أعرف ما يحدث في هذه البلاد يا فؤاد.

وسكت فقلت :

ـ وأعرف من أين تأتي الأموال لدعم المؤامرات وشراء النواب والوزراء، وأعرف من يمول الحفلات و.. وهل تريدني أن أكمل؟

فقال باقتضاب :

ـ كلا.

ـ اذن فهمت الآن مقصدي عندما قلت ان المال يجلب الكوارث. وتطلع في وجهي ملياً وقد أسفر عن غضبه وغيظه وكرهه الدفين نحوي، وامتقع لونه وبلع ريقه ثم قال :

ـ وهل أفهم ايضاً انك موافق على أن يأتي رئيس الوزارة من خارج المجلس؟

فضحكت ساخراً وقلت:

لقد فهمت قصدى بحذافيره كلها يا فؤاد. أنت رجل ذكي منذ صغرك!

وسكت ولكني لبثت أحملق بوجهه منتظراً الجواب الذي أتيت الى تلك السهرة من أجله.

وأخيراً قال فؤاد:

ـ اذن هذا الثمن الذي تطلبه؟

ـ هذا هو الثمن بذاته!

ـ اذن أنت تريد أن تتحرر من لعنتك؟

وقهقهت عالياً اذ كنت أنتظر منه مثل ذلك التعليق، فقلت له ببساطة وراحة:

ـ كلا يا عزيزي فؤاد، أنت الذي ستتحرر من خوفك الدائم وستتحرر مني أنا بالذات، وأهم من هذا كله، سنصبح متساويين.

وسكت، فقلت:

ـ وصادقين أيضاً يا عزيزي فؤاد.

وتساءل فؤاد:

ـ صادقين؟

ـ أجل، لقد سئمت الزيف يا فؤاد، سئمت الزيف لا سيما معك انت.

ونكس رأسه ثم رفعه وقال:

ـ اذن اتفقنا.

ـ كنت أعلم اننا سنتفق لأننا لم نختلف مطلقاً، وستظل كالعادة أنت الرابح بيننا.

ـ هذا يعتمد عليك من الآن وصاعداً.

ـ كلا يا فؤاد، كلا ان الموقف من الآن فصاعداً سيكون كالتالي: جدارتك تجاه ايماني!

وعاد فؤاد الى قناعه، فضحك قائلاً وهو يشد على يدي:

ـ اذن.. وفقنا الحظ!

ـ وهو كذلك.

وخرجت الى الليل وأنا منهك مرهق، وركبت سيارتي ادرج بها على غير هدى. لقد كانت هذه عادتي كلما شعرت بحاجة الى استعرض أفعالي وأفكاري. وكنت جذلاً بعد حديثي مع فؤاد، وشعرت براحة مدفونة في أعماقي تتوق الى الانفراج من رقدتها ولكنني شددت قدمي على البنزين، وانطلقت السيارة بسرعة هائلة، فتذكرت جاكلين، إنها تحب السرعة! وكنت قد وصلت الى محاذاة البحر فعدت أتذكر وعدي لها بأن نتنزه معاً بجانب البحر لكي نتأمله سوية.

ولاح لي وجهها، وعيناها الصافيتان في آخر لقاء لنا، عندما قالت لي:

ـ هل تعلم اننا لم نلتق منذ شهر كامل؟

وأجبتها حينذاك اني بالرغم من هذا الفراق الطويل، أحس كما لو اني تركتها بالأمس، الى هذا الحد كنت أحسها بقربي. اليوم بعد ستة أشهر من الفراق، رأيتها، ولم يكن يبعد بيننا سوى خطوات أربع أو أقل، ولم أتقدم منها ولم اقترب. يا ترى هل ستفهم، هل ستفهم لماذا ازاحتها الأحداث بعيدة عني، وأنا في غمرة من الزيارات والحفلات؟ اني أسهر كل ليلة، ولا أكف عن الكلام، وأروض الأشخاص في زاوية، وعلى غداء، أو في اجتماع. ويكون الموضوع دوماً واحداً، أصل الى صلبه مهما كلفني من عناء أو جهد أو معلومات. هل تفهم جاكلين ان ما يحدث أكبر مني، وأكبر منها، هل سيدلها حدسها على ذلك؟ وهل يخطر ببالها اني بدلاً من أن أمر على ابراهيم وليزا في نهاية السهرة، أصعد الى الجبل حيث أزور خليل بك فأقضي الهزيع الأخير من الليل في مناقشات أخرى، ولا أستفيق من النوم في اليوم التالي الا لأجد بيتي مليئاً بالناس؟

ليت بمقدوري أن أخبر جاكلين عما يمزقني، فأحكي لها أن الناس والمشاكل والاجتماعات لا تتركني لنفسي، ولا مكان لنفسي حتى في جوفي أنا، ليت بوسعي أن أكشف لها المتناقضات التي أعيشها، فتفهم اني في الحقيقة لست بعيداً عنها. اني التقي بها بحدسي واعرف انها هي الأخرى معي، تعيش معركتي وتنتصر لصمودي.

طالما انتظرت ان أسمع صوتها عبر الاسلاك، كنت أشعر بوحشة له، وكنت بحاجة اليه ليذكرني بأني ما زلت أنا، وانني ما زلت أحيا كانسان. ولكني بالرغم من توقي اليها كنت اعلم أن الظرف الذي خشيت أن أزجها فيه قد أتى، اذ بات وجودي منسلخاً كل الانسلاخ

عن كل شيء لا يمت بصلة مباشرة بهدفي، وجودي لم يعد يطيق وجودها أيضاً. ومضات خاطفة كانت تسرق وجودها مني فأتمناها كما تمنيت أن تتصل بي بعد حفلة مدير البنك الوطني، ولكن التلفون ظل أخرس في وجهي، ولم أعد اسمع منه سوى أصوات تدفعني اكثر واكثر بعيداً عن نفسي.

كنت أشعر ان انقطاعي عن ابراهيم هو الآخر مثل ابتعادي عن نفسي، نفسي الأخرى تلك التي ليست كالآخرين.

لكم سئمت «أنا الآخرين» هذه، لقد أصبحت لا تطاق، مقيتة، ملتوية، تقليدية في ردود فعلها وتصرفاتها. لقد انحرفت في هذه الفترة انحرافاً كبيراً، وبات التوازن الذي حافظت عليه، مهدداً بأن ينحاز الى طرف من شخصيتي اكثر من الطرف الآخر، حتى كدت أنسى «الأنا» التي لا تنتمي الى أنا الآخرين. ونوبتي اللعينة، ودواري المخيف، ألم يزوراني يا ترى بعد هذا الانحراف الخطير؟ ام اني لا أحس بهما لانهما كي المتواصل في العمل؟

بعد السهرة التي حضرتها عند مدير البنك، خيل الي وأنا أقود سيارتي على غير هدى، بأني سوف أتقيأ نفسي! خيل الي وأنا غارق في التفكير، أحلل الأوضاع وخطتي تجاهها، بأني قد أصطدمت بحائط ما. كنت بحاجة الى أن أسمع نفسي تتكلم وتتناقش بصوت عال، وشعرت اني لن أجد خلاصي الا عند ابراهيم. يجب أن أخبره عن حديثي مع فؤاد نادر. ماذا تراه سوف يقول، إني أساوم؟ أنا الرجل المثالي يساوم؟ لن يقبل ابراهيم بهذا، لن يقبل مطلقاً. أم إنه سيفهم، ما دام قد فهم متناقضاتي بأجملها، ألمّ بأصغر تفاصيلها؟ من غيره يدري أن كنه شخصيتي، سر تكوينها في الأصل قائم على التناقض. إنه الوحيد الذي

يعرف مثاليتي الصرفة، وواقعيتي، المجردة. كاد رأسي ينفجر، أهي النوبة إياها؟ ولكن لا، ضيقي جديد هذه المرة، ضيقي.. ضيقي.. ماذا؟ أدرت سيارتي باتجاه بيت ابراهيم لعلني وأنا أتحدث معه استطيع أن أكتشف معالم ضيقي الجديد. غير اني قبل أن أصل الى شارع بيته، وجدت نفسي أتوقف فجأة وأدير السيارة بعنف، وأسوقها بسرعة جنونية الى بيتي أنا. وقصدت غرفة نومي مباشرة، وتمددت على سريري، وأنا أكابد من حمى عجيبة. دق جرس التلفون، فهببت من رقدتي كالملسوع، كان انطون على الطرف الآخر يقول:

ـ يجب أن أراك حالاً!

ـ ماذا حدث؟

ـ لا استطيع أن أخبرك بالتلفون.

ـ اذن تعال، تعال حالاً، حالاً.

لم يتأخر أنطون بالمجيء سوى دقائق معدودة، ولكني كنت ككومة الصوف اذا مستها شعلة نار. جاء انطون، وفتحت له الباب بنفسي، وقبل أن يدلف الى الداخل كنت أسأله عما حدث.

ـ ماذا دهاك يا كمال؟ عهدي بك هادىء الأعصاب.

ـ دهاني شيء مرعب، وكأن امراً خطيراً قد حدث.

ـ لم يحدث شيء بعد، إنهم بانتظارك. الجماعة اتصلوا بي ليخبروني أن القرار قد تم على ان تنطلق المظاهرات من الاحياء صباح الغد. هل توافق؟ إنهم قرروا ذلك بناء على نصيحتك بانتظار نتيجة إجتماع الر. .

ولم أعد أسمع ما يقوله انطون. لقد اندلعت النار في جوفي، ولم يعد

في عروقي دم، تحول دمي كله الى نار رهيبة، عروقي أصبحت أسلاكاً كهربائية تتطاير منها الشرارات عند كل صوت أسمعه، ولدى كل حركة أقوم بها، ويهتز جسدي لكل فكرة تولد في عقلي. وتتابعت الأفكار، تتراكض، تقفز، والنار تشتعل غير آبهة ولا متأثرة بالعرق المتصبب من كافة مسام جسدي. لم أعد رجلاً، ولا انساناً، ولم أعد مثل نفسي، ولا كالآخرين. تكورت في حمى مجنونة سرعان ما تحولت الى طاقة، الى قوة هائلة جبارة، ولا متنفس لها سوى من ثقوب الجدار الذي فصلني عن نفسي.

خمسة عشر عاماً وأنا منفصل عن نفسي، أفعل بها ما لم يقو عليه جميع الذين كرهوني وحاربوني. لقد عذبت نفسي، اذللتها، وجعلتها تقدم على كل ما يهين مثلي، ودربتها على تحمل كل ما تنبذه عقائدي، تحملت خمسة عشر عاماً من الذل وتصرفت بنفسي وكأنها الدمية والآلة، فكنت خلالها كومة الفجل التي احتقرها ابراهيم، بعيداً عن المثل الأعلى الذي عبدته جاكلين.

أما الآن، الآن حان الوقت لكي أحطم الحائط! لقد انتهت مرحلة الانفصال، وسوف أخمد النار المستعرة في جوفي، ومن تحت الرماد سوف تنبثق وتنتصب نفسي الكاملة الحرة.

شعرت بأنطون يسحبني من يدي، فركبنا سيارته وانطلقنا الى مبنى صحيفته لكي ندير المعركة من هناك. وفي الطريق أخذت أتأمل استفاقة الفجر، وعاودني الهدوء، وأيقنت أن نوبتي غاصت الى الأبد مع ذيول الليل المنسحب بانكسار ووداع. وأتت النشوة العارمة، وراحت تتمطى في وجودي بلذة لم أذقها في حياتي كلها. ولم يكن ذلك الفجر سوى فجر حياتي أنا، إذ انتصب في كياني مارد جبار، وعانقته بفرحة متوحشة،

وبذلك العناق ولدت لأني كنت أعانق أبي. لقد أصبحنا أخيراً واحداً.. بعد خمسة عشر عاماً، انصهرنا أخيراً في واحد. ولم يعد ولهي الذي استطاع أن يتخطى قوة الانسان، ملكي، ولا حتى أنا لم يعد لي حق التصرف فيه.

لقد انبثق من كلينا، واندفع الى الخارج، ليتعلق بالمثل الذي ولدته وشعرت بقوتي تسبقني، تسبقني الى هناك، الى قلب الشعب، لترتمي وراءه وحوله ومعه، ساندةله، ممتزجة معه.

وتملكتني قشعريرة بعد الحمى المجنونة التي حررتني من عبوديتي، وبت بحاجة الى حمى جديدة أدفىء بها وجودي بعد ما أصبحت انساناً حراً. وتمددت على مقعد في مكتب أنطون وجوفي يتململ من الأعماق. رويداً، رويداً انتشر في كياني احساس لذيذ، منعش، اذ تدفقت عواطفي من سجنها، وصعدت الى رأسي، ولفت قلبي بحنان اذهلني، وأخيراً بات بإمكاني أن أحب. وكدت أصرخ بوجه أنطون أني أحب! أحب بلدي، أحبه، أحبه، أحبه!

٨

سمعت رجلاً يقول ذات يوم أن أجمل ما في الدنيا . . أحلامنا التي لم تتحقق بعد. وسمعت آخر يقول: إن أثمن ما في حياة الانسان هي ذكرياته. وأنا كنت حتى مدة وجيزة أرى الجمال وروعة الحياة في الأشياء التي احققها في نفسي. كانت سعادتي تكمن في اللحظة وفي الومضة التي أصهر فيها ساعات الازل وأيامه.

ماذا جرى إذن؟ ما بالي أتصور أني استنفدت. ومنذ متى بدأت أعاني هذا الغثيان؟ إنه يلح عليّ أن أتقيأ شيئاً ما في جوفي، ولكني كلما فتشت عنه لكي أرميه خارجاً، أتبين أن ليس هنالك ما أرميه، لم أجد أي احساس، أية فكرة نائتة أو معترضة، أو حتى موجودة، لم أجد ما أستطيع أن ألتقطه أو أقتله فأتخلص من عبئي. حتى أن وجودي نفسه لم يعد مقسماً أو مفترقاً، لقد انصهر كله في واحد؟ كلا، إني متشبثة بنفسي أكثر من أي وقت مضى، ولكنه يخيل الي أني متشبثة بلا شيء. إني موجودة، إني أنا، وأنا أعرف هذه الأنا، إلا أني بالوقت نفسه أحس نفسي كالجوفاء، وكأني مجرد لا شيء!

وأنا لست كاللاشي الذي كنت ضائعة فيه في بداية حياتي هنا. أنا لم أعد ضالة عن درب حقيقتي، بل على العكس، لقد أصبحت شيئاً ملموساً، إني إنسان وفرد ولكني . . لا شيء. وعالمي الذي بنيته أيضاً موجود بل هو الوجود الوحيد.

إنه الوجود الذي أدخل اليه من الباب الموارب، فأحس بتلك

النشوة العارمة التي تتفجر طاقة وحياة، وأعرف بأني موجودة، وأشعر أن ارتباطي بكمال هو الذي يربطني بالواقع، طالما هو الانسان الآخر الذي يجسد أملي في الحياة.

وأنا لا أنكر أني تضعضعت بعض الشيء لما أفشى سره، فقال انه رجل بلا عاطفة، غير اني تجاوزت تلك المرحلة. بل أكثر من هذا، لم يصبح عالمي كاملاً الا بعد أن حدث بيننا اللقاء الكامل. لقد ظل حوارنا الفكري يتطور وينضج الى ان بلغ المستوى الكفيل باعتلاء الحوار الجنسي فأصبحنا نتجاذبه. لقد تلاقينا فكرياً، ثم شعرنا سوية بأن لقاءنا أصبح فوق منطق الآخرين وحدودهم، حتى اكتشفنا معاً أن حوارنا الجنسي ليس سوى التعبير المادي لأفكارنا. انه الجانب الرائع من الحوار الذي يمكن أن يدور بين انسان وانسان، وهو الناحية الفريدة التي تنصهر فيها الروحان، وتذوب حدود الفردين في وجود جديد، يتجدد ويكبر كلما تكرر. وتبين لي انه الحوار الخارجي الوحيد الذي يستحيل فيه الكذب، والا لما استطعنا، أنا وكمال، أن نتفاعل ونلد وحدة كاملة. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما بقيت حتى ذلك الوقت لكي أعرف أن انوثتي قد أكتملت، وإني أصبحت امرأة حقيقية، ولما استطعت أن أقتحم وجودي بقوة مطلقة. كمال نفسه لم يعد يغلفه الغموض لأني كنت ألمس ارتباطه بي بصورة مادية واضحة وخالية من الوهم. والروعة لم تكن في اللذة الجسدية بذاتها وحسب، ما كان يمنحني النضج والامتلاء كان شعوري بأني قد وهبت طاقتي المطلقة كوسيلة أعبر من خلالها عن عواطفي وأفكاري. وكان لدي ايمان راسخ بأني أديت تعبيري بمستوى عواطفي وأفكاري نفسه. ولعل الانفتاح الشامل هذا هو الذي جعلني أمتلك وجداني، وكأني أمسكه بيدي. لقد كنت أحس بالفعل كالوردة

التي تتفتح، فتبلغ ذروة جمالها. ولا غرابة في أن أكون قد سمعت الناس يقولون لي: «كم أنت جميلة، انك كالوردة التي تتفتح!» أجل سمعت هذا التعبير عشرات وعشرات المرات.

اذن ما الذي اشكو منه، ولماذا أظل أتعذب من هذا الغثيان الملّح، وعندما أصبح على وشك التقيؤ، لا يخرج شيء. ولماذا تضاعفت حساسيتي بأمور كنت أظن نفسي قد اعتدت على تحملها؟ أمور يومية أمست تثيرني بشدة، وبغير الطريقة التي كانت تثيرني بها في الماضي. مطالعة زوجي للصحف مثلاً، باتت تثيرني بشكل لا أحتمله البتة، فكنت ألاحقه بالأوصاف البشعة، وأنعته بالسلبية تجاه الأحداث الراهنة، حتى أوشكت أن أقول له، لماذا تحيا اذن؟

أما بالنسبة للآخرين، فإن زيفهم الذي كان يضايقني، أخذ يوسع الهوّة الموجودة بيني وبينهم، وكأني كنت أقول لنفسي: طالما انهم غرباء عن أنفسهم، فكيف سيتسنى لي أن ألتقي بهم؟ وكنت أنصت اليهم، الى شكوكهم وهموهم وإلى آرائهم واهتمامهم، وكنت أتفرج على مواقفهم وأتركهم يفعلون أمامي ما يشاؤون، وانا تجاه هذا كله كالصنم الأجوف لا أنفعل ولا أتأثر. كنت أعيش على هوامشهم وقد ازددت قنوطاً من وجود الآخرين أصلاً، وكأنهم مجرد وهم، وكأن الذي يؤكد لي أعجابه، وذاك الذي يحكي عن نفوذه والتي تشكو من المرض والأخرى الغارقة في الحب، أو التي تختنق من الضجر، كل هؤلاء وهم يفصحون عما يظنونه مشاعر خاصة بكل واحد منهم، ليسوا في الحقيقة سوى البرهان القاطع الباتر بأنهم بعيدون كل البعد عن حقيقة أنفسهم، وبالتالي بعيدون عني.

وكنت وحيدة.. وحيدة! وكأني في حالة وداع مع الناس، وكأني

على وشك الرحيل الى عالم ليس فيه ناس أبداً. وكنت أحاول أن أؤجل ذلك الانتقال الفاصل وانا في الوقت ذاته أعلم أن لا مناص من الرحيل ولا أمل في البقاء. كنت كمثل الذي يؤجل سفره يوماً واحداً، بعد رحلة ممتعة في بلد ما، وهو يظن انه سوف يرى في ذلك اليوم ويأخذ منه، اكثر مما أخذ، خلال شهر كامل كان قد قضاه فيه.

ولم أنقطع عن الاتصال بكمال في تلك الفترة، وكنت أعرف انه غارق في سلسلة من الحفلات والاجتماعات، ولكنني لم أفهم ماذا يحول دون لقائنا المعتاد. كانت تمضي الأسابيع ولا يدور بيننا ثمة حوار، وكأن حائطاً جديداً قد انتصب ليحول بين تفاعلنا مع بعضنا. كنت بعيدة عنه، ولكن أخباره أحاطتني بسجن لا مفر منه. كنت أسمع عنه في كل مكان، وألتقط اسمه من بين الهمسات التي تدور حول اسم المرشح لرئاسة الوزارة. وعندما علا صوت الهمسات اصبح اسم كمال شاغل محترفي السياسة وهمهم الأكبر، يتناقلون أخبار تحركاته وتصريحاته واستنتاجاته.

كنت أسمع وأسكت، وأتذكر بأن حدسي لم يخيبني لأني كنت أعرف منذ البداية أن كمالاً لا يفعل شيئاً في الدنيا إلا من أجل الوصول الى أهدافه السياسية. كنت أعرف هذا بالرغم من انه لم يفصح لي أبداً عن رغبته في العمل السياسي، ولا حكى لي عن الخطوات التي يتدبرها للنزول إلى المعترك بل طالما نفى لي مجرد تفكيره بالسياسة. وتعلقت به معتمدة على قوة حدسي، وبلغ تعلقي به حداً لم أستطع من بعده، أن أحتفظ بالناحية الانسانية البحتة دون الناحية الأخرى التي تكمن فيها أهدافه الفكرية السياسية. وعندما بات الطريق الذي يسلكه واضح المعالم أكيد الخطوات، شعرت بعالمي يهتز وباستقراري يتزحزح، فكانت بداية انفصالي عن واقعي.

كان بعده عني في تلك المرحلة الحيوية بالذات، الصدمة الرهيبة التي لم يخطر ببالي مطلقاً أني سوف أواجهها، ولم أفكر يوماً بأنه قد يخوض معركته السياسية من دوني. وكأني كنت أعبر صحراء شاسعة مع قافلة كبيرة، ما لبثت أن تركتني فجأة وتابعت طريقها، وبقيت أنا لوحدي لا مكان لي في الدنيا الواسعة، ولا حدود لضياعي، سوى السراب الذي أحاط بي من كل جانب.

وحيدة كنت بالرغم من وجودي في خضم المعركة، وفي وسط اللغط والحماسة التي توغلت في نفوس الناس الذين ألتقي بهم. وتولدت لدي نقمة على الناس، وكأني أتساءل:

«هل هم أكثر ارتباطاً مني بما يحدث، وهل القضية من شأنهم أكثر مما هي من شأني أنا؟ الاحداث لم تصبح قضيتهم الا في الوقت الذي تأزمت فيه الحالة، بينما كانت قضية وجودي منذ أن بدأت أعي وجودي نفسه». وكلما كانت نقمتي تزداد، كلما أخذت أنفر من تلك المشاركة غير الحقة مع الناس، فأتوق الى الانسحاب من الموقف الذي ساواني بالآخرين.

ومن حيث لا أدري، ولعل شدة حرماني حتى من رنة الحنان التي توارت من صوته على التلفون، تشابك قرفي من الآخرين بكمال نفسه، وتكور وجودي في مشكلة واحدة، شاملة، هي أن أتخلص من لجة الحيرة التي وجدت نفسي ملقاة فيها. ولم يعد لي هدف يدفعني الى اللحاق بأيام المستقبل سوى رغبتي في أن أفك الرباط، لكي أتحرر من سيطرته علي. وكأني كنت أعرف منذ البداية اني لو تركت لنفسي العنان فاني سوف أصاب به كما يصاب المرء بالمرض أو يستعبده إيمان، فيتعذب به. وقبلت به ومنحته نفسي، لأني في العذاب كنت أقترب من جوهر الحياة،

وكنت ألمسها عن كثب وأبتعد عن الزيف، كنت أدخل الى قلبها ولا اكتفي بالتفرج عليها من هوامشها. ولكني كنت في حالة خوف مستديمة، حالة خوف من أن أصطدم بالحدود التي يقيد نفسه بها، كنت أخشى أن ألقى نهايتي عند تلك الحدود.

وأتت النهاية هكذا، على شكل كارثة خبيثة اختبأت في مرض لزج أصابني في الصميم. لقد أصابني في صميمي، بالرغم من أن كمالاً لم يتركني ولم ينفصل عني، انه ليس عالماً خارجاً عني ولا هو انسان انتهيت من معرفته ووصلت ذروة التفاعل معه فاستنفدنا طاقاتنا معاً، مشكلتنا لم تكن كذلك. بل على العكس، لقد امتزج بنفسي حتى أصبح يجري في دمي، ولم يعد بالامكان أن أقتل وجوده في نفسي أو أن أتخلص منه دون ان تموت معه بعض نفسي. وما كان يخيفني الى حد الذهول، بل جل المرض كان يكمن في قوة ايماني بأنه ما زال يحس بي، واني ما زلت بالنسبة له عضواً لا يتجزأ من أعضاء كيانه. ولكن مقدرتي ظلت عاجزة عن فهم كنه ارادته، حتى في الوقت الذي كان وجوده يتلخص في التعبير عنها. وظل حدسي يرفض أن يصدق بانه استطاع أن يتخلى عن العضو الذي هو أنا، بينما أنا ما زلت مريضة بحاجتي اليه. أنا ما زلت أشعر بسذاجة الشوق الى بريق عينيه والى هزة قدمه العصبية، وحتى الى اسلوبه في نفث السيجارة. وأنا ما زلت أرنو اليه، وأشتاق الى وجهه كلما تطلعت الى أعلى، الى فوق . . الى أي جبل من جبال لبنان، فأتخيله واقفاً هناك!

هل كان الوهم أصل البلاء أم الحيرة، أم ماذا؟ لست أدري سوى انه بات لدي ايمان قاطع بأني لست اشكو من حالة نفسية عابرة أمر بها وأتجدد من بعد متاعبها، بل انه، مرض جسدي خطير يفتك بي. وقررت الذهاب الى الطبيب.

واستقبلني الطبيب ببشاشة لم أكن قد نسيتها بعد، بالرغم من الوقت الطويل الذي مضى دون ان أكون قد التقيت به. وسألني مما أشكو منه فأخبرته، وقام بفحصي وعندما انتهى أشعل لي سيجارتي بلباقة ووضع قداحته الأنيقة على مكتبه، وجر كرسيه الى مقربتي وقال:

ـ ولكني لا أفهم يا مدام جاكلين، ان صحتك جيدة وجسمك سليم، كل ما يلزمك هو بعض الراحة من كثرة الحفلات.

ـ ولكني يا دكتور لا أسهر كثيراً في هذه الأيام.

ـ هل حاولت أن تقومي ببعض النشاط الرياضي؟

ـ وهل تظن ان هذا سيشفيني. اني لم أعد أتحمل الغثيان.

قال:

ـ أظن أن قليلاً من المشي سيساعدك. إني لا أرى انك تشكين من شيء سوى توتر الاعصاب! وهذا ما لا أفهمه، كيف أن سيدة مثلك، وفي سنك وشخصيتك وثقافتك يمكنها أن تصل الى هذا الحد من توتر الأعصاب، فتصاب بعوارض فسيولوجية؟!

ـ هذا ما قصدتك من أجله، يا دكتور.

ـ بكل سرور مدام جاكلين، إني رهن إشارتك. يسعدني جداً ان أكسب صداقتك. وليس من الضروري أن تقاس الصداقة بالزمن. حدثيني كانسان، كرجل صديق. ثم لا تنسي أني طبيب وتستطعين أن تتحدثي معي بكل صراحة، بدون أي حرج.

. . . وبينما كان الرجل يتكلم، تسللت إليّ نوبة غثيان فأطاحت بالبقية الباقية من توازني. ولا أدري ماذا حدث وأخذ صوته يتباعد

ويتضاءل، حتى بات يأتيني من بعيد وكأنه صدى لصوت سمعته من قبل، وكأني أنا أشاهد مسرحية وأتفرج على نفسي تستمع الى كلام يعاد بحذافيره بعد اكثر من عام كامل! وأخذ وجه الطبيب يتلاشى رويداً رويداً، ولم أعد أراه وقد اختفى في الزحام. واتبعت نصيحته وأخذت أمشي ساعات طويلة، كنت أمشي لعلي أضيع بين الآخرين، لعلي أتخلص من نفسي في زحام الآخرين، ولكني لم أصل الى أي مكان، وبقيت أنتظر فجراً جديداً دون جدوى، وظل بابي مواربا، وأنا أتذكر حلماً جميلاً! وكأني كنت تائهة في أفق شاسع أحصي النجوم وأطير مع الطيور وأرفرف فوق الآخرين، الا أن فجري لم يبزغ من جديد. وتزحلقت أنا من فوق النجوم، الى زحمة الآخرين، ووقعت بين الآخرين، وأنا ما زلت واحدة هي «أخرى». . هي ليست الآخرين الذين يعيش كمال من أجلهم اليوم، لقد استبدلني بهم ليحقق رسالته الكبرى. لقد تركني لوحدي، لوحدي، أعيش في فراغ كبير وكأني معلقة بين السماء والأرض بعد أن راح الخيط الانساني الذي كان يربطني بواقعي.

لقد تلاشى الخيط ليربط به كمال زمرة الآخرين، ولم يترك لي سوى سحر يتسلط علي كاللعنة، ويدفعني الى مجالات رهيبة، فأغوص وأغوص من تأثيرها، وكأني وصلت قاع البحر أو أصبحت تحت الكون، ويداي ترتفعان الى اعلى تطلبان النجدة، تطلبان يداً لتمسكا بها وتحسا بحرارتها، ومن ثم حرارة الأرض التي لم تعد قدماي تحسان بوجودها. وأتوق الى الحنان، والى الدم الحار كي يجري في عروقي من جديد، وأتوق الى العاطفة التي فتحت في السابق مسام جسدي ووجداني ولكنها كانت تسرح حولي كالزئبق لا أستطيع أن أمسك بها، ولا هي تجد وسيلة لكي تتعلق بي.

وكنت ألوذ الى ابراهيم وليزا أتأمل القوقعة التي بنيا في جوفها

وجودهما معاً، فأتلمس خيوط الحياة التي كانت تنبت منها لعلي أتوهم اني لست وحيدة تماماً وأنا أتحدث معهما عن الكتب وأشاركهما امتلاء بروعة الموسيقى. وكفت شفاهنا عن تلفظ اسم كمال بعد ما كان كمال هو الواقع الذي يرتكز عليه ابراهيم كلما اقارن الروح بالجسد. وكنت أفهم أن موقفهما من كمال مشكلة محلولة بالنسبة لهما، لانهما ليسا بحاجة الى وجوده لكي يستشعرا وجودهما. ولبيا طلبي الصامت ورغبتي الخرساء فانسحبا من وجودي وتركاني لأحل مشكلتي لوحدي، تركاني أفتش عن المبهم لاتقيأه. وتثاقلت زياراتي لهما كلما ألح علي الشعور بأني على وشك أن أودع كل شيء.

والتصقت بوحدتي اكثر وأكثر وأنا معلقة بين السماء والأرض، دون هدف ولا اطار. وباتت أحاسيسي تقترب رويداً رويداً من الشعور بالاختناق، وتأكدت بلا أدنى ريب اني سوف أتقيأ هذا المبهم الذي يسكن جوفي، وكنت على وشك أن أرفع قدمي من رصيف، الى رصيف، لأنتقل من حالة الى أخرى..

عندها حدث ما أجّل سفري!

ووقفت ذات يوم مذهولة بالرجل الذي اعتلى منبر الجماهير وأخذ يدافع عنهم بوحشية المتهافت على زورق النجاة وفتات الحياة! هكذا خيل الي كمال عندما أخذ يترافع عن المتظاهرين الذين ألقي القبض عليهم. وكان هو لوحده، هو بكل ما خلقه من ضجة وتطورات في الميزان السياسي، كان يفوق الأحداث الخطرة أهمية.. كادت ضجته هو لوحده تفوق الضجة التي دفعت الشعب الى شفير الثورة الفعلية.

ولم تكن مرافعاته دفاع عن أبرياء زجوا في السجون لمجرد أنهم كانوا يعبرون عن آرائهم، ويحاولون أن يمارسوا حقهم في الحياة في البلد الذي

يعتبر نفسه منبر الديمقراطية والحرية، لم تكن مرافعاته تتناول هذه الفكرة وحسب، بل تعدت ذلك الى ما هو أعمق وأخطر، لأنها سرعان ما اتخذت صفة الاعلان عن برنامجه السياسي وخطه الوطني. وكان اسلوبه في عرض افكاره مذهلاً مخيفاً لدقته وحذقه، وكأنه كان يسير وفق خطة مدروسة تبدأ بالفكرة المعينة التي تتخلل مرافعته، ثم ما تلبث أن تطرح على بساط البحث في الصحف والاجتماعات والحفلات. وكانت صحيفة انطون تترأس هذه الحملة، فترمي للرأي العام بالفكرة تلو الفكرة لكي تدور دورتها بين صفوف الشعب ثم على الصعيد الرسمي.

ولم يكتف كمال بعرض المثل والأفكار، بل بدأ فعلاً بممارسة السياسة، اذ كان يعمد في مرافعاته الى التنويه بكثير من الفضائح السياسية والمالية التي كانت رائحتها قد طمست عند حدوثها.

وعندما لاقت الفضائح الصدى والضجيج اللازم في أوساط متعددة، أخذ كمال يتحدث عن تفاصيلها ويعلن عن اسماء أبطالها مما أثار ضجة اكبر. وهكذا انضمت الى المعارضة صفوف لم تكن موالية لها من قبل، بل كانت تسير في خط معاكس لها ومناهض، ولكنها عندما وجدت كمالاً يدافع عن حقوق قد اغتصبت منها، اندفعت وراءه متبينة فكرة الاعتدال ومفهوم الاستقلال الجديد الذي كان يدعو اليه.

وكنت أستمع يوماً بعد يوم الى التطورات التي يحدثها كمال في الميزان السياسي وأنا أقرب الى حالة الذهول من اليقظة التي هزت فئة بعد فئة أخرى من الناس فأصابتها بحمى سياسية جنونية. أما انا فقد انتقلت من حالة الذهول الى معاناة نوع فريد من التمزق. كنت أحس أن الشعب الذي ارتمى فيه كمال مثلما لم يرتم في وجداني أبداً، يشاركني تطورات مولدي وحياتي. كانت كل فكرة يطرحها كمال تذكرني بفترة من فترات

استيقاظ وعي، وتعيد لي ذاكرتي كل مرحلة من مراحل ارتباطي بكمال نفسه. واليوم عادت نفس الأفكار الى حيز المطالبة الحقة على صعيد عام شعبي، تشعب به كمال وتعمق. ولكم ذكرني كلامه كله، الذي أقام الرأي العام وأقعده، بيوم قلت له اني أشعر بنفسي غريبة عن بلادي، فأجابني انه يشعر بالغربة أيضاً طالما هو بعيد عن المبدأ أو الرسالة التي في بلده. وكانت تلك من المرات النادرة التي أفصح فيها عن نوعية تفكيره، ولعلي منذ ذلك الحين تأكدت أنه لا يمكن أن يحقق ذاته إلا عن طريق العمل الوطني.

وكانت معظم نداءات كمال موجهة إلى طبقة المثقفين والشباب، وكان يخاطبهم بإقناع مذهل، وكأنه أمام واحد فواحد منهم، يحلل مشاكلهم، ويبرز دورهم، ويطالب بحقوقهم. وكان يفعل هذا وكأنه يجالس عدداً ضئيلاً منهم في غرفة صغيرة مغلقة، وليس من فوق منبر ومن بين سطور في جريدة أو في تصريح عام. كان واضحاً أن ارتباطه بهم شخصي قريب، لذلك بدا صوته وكأنه أصوات مئات ومئات من العناصر الطيبة التي حدثني عنها الطبيب دون أن يفهم جوهرها.

ومع معركة كمال، زججت أنا أيضاً في الأحداث السياسية، وازداد تمزقي وتضاعفت نوبات غثياني وأنا أشهد يوماً بعد يوم. وساعة بعد أخرى، ذلك الحوار الناطق الفصيح الذي كان كمال يجربه مع الشعب. لقد ألهبته قوة الشعب وثقته به فانفكت عقدته وانطلق لسانه يعبر عن وجدانه وحبه العميق الفريد لبلاده. وكنت أرقب كل هذا بفرح. لقد نجح كمال في فك عقدته حيث فشل كل ايماني به أن يحرره تجاهي. ولم أفهم كيف فشلت في ارتباطي به حتى انقلب الى مرض لزج وظللت مكبلة حائرة بالظروف الغريبة التي جعلتني أعود فأحيا يقظتي من

جديد، وأعايش آمالي بهذا العذاب الشديد. كنت طوال فترة ظهوره على المسرح السياسي أتألم من تعلقي الوجداني به، بينما استغرق بناء حياتي ووعيي وانتمائي الأسابيع والشهور الطويلة. إنه شعور غريب وتناقض مذهل لا طاقة لي على فهمه الآن. كنت مذهولة أمام التحول الجوهري الذي جعلني محصنة بوحدتي في نفس الوقت الذي كانت تتهدم فيه أسوار كمال. كانت تمضي علي الليلة تلو الليلة، وكأني أحيا في حلم واتراءى خيال. ولم يساعدني ابراهيم، لا تعليقاته ولا تساؤلات ليزا وحماستها لكمال استطاعت أن تقنعني بأن قدمي على الأرض. كنت أحاول أن أتمسك بهما لئلا أهوي من تمايلي الضائع بين السماء والأرض. كنت أقضي عندهما كل ليلة غير آبهة بسخريات زوجي، بل ان وجوده كان يدفعني اليهما دفعاً، إذ كلما وقع عليه بصري وتحدثنا، تأكدت بأنه ليس سوى اكذوبة كبيرة اشتركت في جرها الى حياتي، وبات زوجي رمز الزيف الذي كنت أحياه. وما كان يزيد من نفوري منه تعليقاته على الأحداث ودور كمال فيها.. ولم أشعر بعقمه مثلما شعرت ذات ليلة حين قال:

ـ صديقك هذا الشاب أرعن أهوج، انه يسلك عكس الطريق الصامت السلبي الذي أودى بمستقبل أبيه، ولكن مصيره كمصير أبيه.

وأجبته:

ـ صديقي هذا.. بطل!

وتلك الليلة بالذات اندفعت عواطفي إلى الخارج كمثل قوة المحتضر، وانهارت مقاومتي في كتمان فشلي بالارتباط بكمال، وأحسست بحاجة ماسة أن أتكلم عنه، لعل بعض الأمل يتسلل الى نفسي، فأسرعت إلى ابراهيم وليزا، وسألتهما عنه للمرة الأولى منذ أشهر طويلة.

وكأنهما فهما الصراع الذي كان يدور في جوفي، وكأنهما تفهما الأزمة التي مررت بها، فتفاهمنا بحوار صامت دار بيننا لمدة لم تتعد الثواني.

وقامت ليزا من محلها ووضعت يدها على كتفي، وقالت:

ـ نحن مثلك يا جاكلين، لم نره منذ أشهر!

واجبتها بصوت يختنق بالانفعال:

ـ ولكنكما.. لم ترتبطا، لم تنصهرا به مثلي. انا.. أنا تلاشيت، ضعت فيه.

وكان ابراهيم يراقبني من محله، وتطلعت اليه كالمستغيثة وشعرت به يحتضنني تفهماً. وقال بهدوء:

ـ جاكلين، لو عرفت أن كمالاً عاش حياته كلها من أجل ما يفعل الآن لغفرت له غيابه، لو تعرفين أنه الان يحيا وجوده على حقيقته للمرة الاولى لفهمت لماذا لا يستطيع أن يحيا مع غيره. لقد أصبح لنفسه وكأنه ولد الآن، فلا تبخلي عليه بالحياة، إذ ليس في الدنيا ما هو أروع من لقاء الانسان بنفسه، وليس في الكون من لقاء انساني أصدق وأكمل من ذلك اللقاء.

وكنت أستمع اليه يتحدث عن كمال، وكأنه كان يتحدث عن نفسي، وعندما سكت ابراهيم شعرت بعبء ثقيل ينزاح عن كاهلي، واعتورتني رجفة، وشعرت أن أطراف أناملي قد تثلجت، إلا أني تمالكت أعصابي وتابعت الحديث دون ان ألتفت الى ما يجري في جوفي. وأردف ابراهيم:

ـ لقد ظل كمال طيلة هذه السنين بعيداً عن المعترك السياسي وهو في

الوقت نفسه يعيش صلب القضايا الجوهرية. وهكذا استطاع أن يصون نفسه من الدخول في المخاصمات المحلية الصغيرة وإن كان يتابعها وكأنه طرف فيها. وتعذب كثيراً هذا الرجل القوي الذي تعرفينه، تعذب من الوصمة التي ألصقها الناس بأبيه، وهو المؤمن بأبيه إيمان الرجل بإلهه.

وفي سبيل ذلك تحمل أجواء يمقتها وأشخاصاً يحتقرهم. لقد كان فؤاد نادرٍ أبعد الناس عن نفسه ولكنه كان ادنى إنسان اليه، لقد قسى كمال على نفسه الى حدود لا يتصورها اي عقل بشري. وهل هنالك أقسى من أن يبتعد الإنسان عن احب الاشياء والأشخاص الى قلبه.. حتى بات كمال رجلاً بلا قلب.

قلت:

ـ ولكني لا أستطيع أن أتصور كمالاً رجلاً بلا قلب.

ـ هذا هو سره، لقد امتلكت إرادته كل وجوده حتى أنه لم يسمح لعواطفه ان تتحكم فيه. لقد اغلقها في جوفه أو قتلها لا أعرف..

وسألته:

ـ ولماذا كان فؤاد نادر أقرب الناس إليه؟ أليس فؤاد صديق الرئيس قبل أن يكون صديق كمال؟ لقد سمعت أنه رجل قد خلقه ابو كمال. ألم يكن في البداية من أعوانه ثم انقلب عليه قبل وفاته؟

ـ ما سمعت صحيح، إلا أن هناك حلقة مفرغة لا يعرفها أحد في حياة فؤاد نادر إلا أنا وكمال. لقد احتفظ كمال بهذا السر واظن أن سكوته قد نفعه الآن.

وتطلعنا إليه أنا وليزا فقال:

ـ فؤاد نادر كان قد قام بصفقة تجارية مع اليهود، ولم تتم، لإنه اختلس مبلغاً كبيراً من المال من أجل تلك الصفقة، وكان كمال في ذلك الحين قد ابتدأ في ممارسة المحاماة، فلجأ اليه فؤاد وساعده كمال ولفلفت القضية، ومات الرجل الذي اختلس منه فؤاد بعد تسوية القضية بأشهر قليلة.

ـ وكيف استفاد كمال من الاحتفاظ بالسر؟

ـ لقد ظل ساكتاً عن تلك القضية لكي لا يحاربه فؤاد الآن. وأنت تعرفين مدى نفوذ فؤاد.

ـ وهل كان كمال بحاجة الى امثال فؤاد لكي يصل دون محاربة الرئيس؟ ماذا يفعل الآن، ألا يحارب السلطة والعهد؟

ـ أنت تعرفين أن لا مناص من اتباع الطرق التقليدية في العمل السياسي. وجل ما فعله كمال هو أن اسكت جبهات لا منفعة من مقاومتها في الوقت الحاضر سوى إضاعة الجهد والوقت. وتأكدي يا جاكلين أن كمالاً تعذب باحتماله هذه الأساليب أكثر مما تتصورين بكثير.

وفي تلك اللحظة رن التلفون، وهرع ابراهيم ليرد عليه، وعاد بعد دقائق متهلل الوجه، منبسط الأسارير. وصاحت ليزا:

ـ ماذا حدث؟ من اتصل بك في هذه الساعة من الليل؟

فجلس ابراهيم ونظر الي قبل أن يجيب، ثم قال:

ـ لقد كان انطون، وأخبرني أن كمالاً استدعي الى قصر الرئاسة.

وصاحت ليزا مرة أخرى:

ـ هل هذا يعني أنه سيكلف برئاسة الوزارة؟

وابتسم ابراهيم مرة أخرى ونظر الي وقال:

ـ إنه الآن في القمة اليس كذلك يا جاكلين، اليس ذلك ما أردته دوماً؟ لقد انتصر، لأن وصوله الى القصر لا يعني سوى انتصار مثله على كل ما حاربه.

وابتسمت بدوري وأنا اقوم من مكاني، ولم أجب.

وشعرت اني لن أحتمل المكوث معهما ثانية اخرى، فودعتهما وأنا أبتسم، ووصلت الى غرفتي وأنا أبتسم، إلا أني حين أغلقت الباب خلفي، غارت الابتسامة من وجهي، وخلت نفسي أسبح في ظلام دامس، وكأن الظلام ينبع من نفسي ومن وجودي، وتراءى لي أني سوف أظل أسير في درب مظلم حتى أجد نفسي.

استلقيت على ظهري وأنا اكابد شعور الاختناق من جديد. مكثت برهة طويلة وأنا أحس بوجود غريب يزاحم وجودي، وكأن ا... الذي يجري في عروقي هو دم كمال، والقلب الذي ينبض في جوفي هو قلب كمال، والعقل الذي يتحرك في رأسي هو عقل كمال. واستلقيت على سريري وأنا أختنق فعلاً إذ لم يعد يحتمل جوفي المولود الذي ولد فيه!

لقد قال لي ابراهيم اشياء كثيرة، قال لي أن أغفر له غيابه، وكأن المشكلة هي رؤيتي له ومقابلته، إنها أعمق من ذلك بكثير. لقد طلب مني أن لا ابخل عليه بالحياة، قال ذلك وهو لا يدري أن كمالاً لم يولد لنفسه وحسب، بل ولد ايضاً في مشاعري وعواطفي. ولم يدر ابراهيم أن ممارسة كمال لحقيقته واكتماله، وان بلوغه القمة لم يكن من جراء تفاعلات تنحصر في كمال وحسب، إنه لا يدري بوجود صدى لها في وجودي، لقد كان صداها يعذبني ويؤرقني، لقد كان صداها ذلك المرض الذي أصبت به، وما شعرت بحاجة الى التقيؤ إلا لكي أتخلص من صدى انفعالاته هو. ولا أدري كم من الوقت بقيت خلف بابي المغلق أعاني

حالة ولادة! وهكذا خيل لي، أنا التي لم أمنح الحياة لجنين، ولم اعرف العذاب الذي يرافق عطاء الحياة، ولا شعرت مطلقاً بحاجة الى مثل تلك التجربة، إلا انني عندما افقت من غيبوبتي، شعرت أني قد ولدت جنيناً ميتاً، لأنه لم يكن جنيني أنا، إنه ليس وجودي أنا، إنما كان جنين الآخرين لأنه نتيجة تفاعل كمال مع الآخرين، وعرفت أن لا علاقة لي بذلك المولود، فلا دمه ولا عاطفته ولا روحه سوف تكون ملكي، ما دامت ملك الآخرين.

وأيقنت أن ما كنت أشكو منه طوال الأشهر الماضية الطويلة كان اكتمال كمال في وجودي ثم خروجه مني رويداً رويداً، حتى كانت تلك الليلة التي وصل فيها الى ذروة وجوده، فزالت بقايا آثاره من نفسي دفعة واحدة.

وقتها خطوت تلك الخطوة الجبارة، وانتقلت من مرحلة الى اخرى، ومن رصيف الى آخر، ودعت الناس أجمعين وأبللت من المرض اللزج الذي كان يربطني بكمال، واستكنت الى ظلمة دامسة لا أثر للحياة فيها سوى وجودي، وعانقت نفسي احتفالاً بوحدتي. لقد عرفت أن لا أمل لي بلقاء كمال بعد اليوم، عرفت أنه لن يكون بيننا ثمة اتصال، لأن اتصاله بهدفه سوف يمتص وجوده بأجمعه، وسوف يكون حاله حال الإنسان الذي يمتصه ذاك النوع من الرمال حيث يكفي أن تزل قدمه على طرفها لكي تبتلعه ابتلاعاً. وبات من المؤكد أن رماله السياسية ستبتلع في جوفها كل وجوده، وستغوص ذكرى اتصاله العميق بي.. في قعر إنسانيته، لأني أنا لم أكن هدفاً بالنسبة له. لقد أعطاني نفسي وأعطاني هدفاً ينبع من نفسه هو، أما نفسي فإنها لم ترتبط بالهدف ارتباطاً مباشراً، لقد اكتفت بوجوده في إيمان غيري. لكم اختلطت علي الارتباطات

وضلت أهدافي دروبها. يجب أن أسافر، أريد أن أسافر وأن أتيه على الأرض من جديد لكي أحمي نفسي من الضياع في عالم كمال. وجودي بقربه الآن خليق بأن يضعضعني. سوف أزور باريس ومن بعدها أبدأ حياتي من جديد، دون زوجيّ، وخارج الإطار الذي فرضه علي. ولكن كيف سأجد باريس هذه المرة يا ترى؟ وليس لدي مرادف أو شعور جديد يبادل شعوري بالحزن السعيد الذي تملكني عندما قررت الانفصال عنها؟ إني سأعود إليها في زيارة وأنا لست مرتبطة بها، سأعود بشعور قانط، بشعور مستسلم إلى الحقيقة الحزينة، تلك الحقيقة التي تكاد لا تصدق لفرط بساطتها. ولم أشعر براحة الاستسلام مثلما شعرت عندما اكتشفت أني ما دمت أحيا على سطح الأرض هذه. فأني لن أجد شيئاً جديداً، ولن يحدث لي شيء جديد.

لقد أيقنت ان كل ارتباط سوف أصطدم به، وكل علاقة قد تحدث لي، وكل عاطفة قد تغريني، لن تكون سوى وهم سوف احتاج الى الاتكاء عليه في حالات ضعفي ولحظات رغبتي المزيفة في ان اصدق وجود الاخرين.

الحقيقة الوحيدة هي أن «آخريني» انا قد ماتوا، كل الآخرين قد ماتوا، الاحياء ليسوا سوى الوهم الكبير، ووجودهم هو الظل الذي يعطينا أمل النور، وكلامهم هو الحوار الأخرس الذي نتبادله لنبدد الملل والوحدة التي لا نطيق أن نتحملها، وان كنا نعرف حق المعرفة ان ما من كلمة تلفظ من أجل أن يفهم الآخرون الا وخرجت منحازة عن التعبير الكامل الصادق، وما من جملة تنسق الا وكانت مقصرة عن نقل الانفعال الذاتي كما يحدث في الجوف.

وأنا ما دمت أعرف هذا، فإني لن أخيب بمشاعر الآخرين نحوي،

ولن اكون بحاجة اليهم لكي أشعرهم بمشاعري ولن أعتمد عليهم لاكتشاف نفسي. لقد وجدتها، وجدت نفسي، إني أحس بها، وأريد أن أبقى هكذا وحيدة معها.. أريد أن أحس لوحدي، أريد أن استنشق احساساً وحقيقة، أريد أن أرى كل شيء كما أريد أنا أن أراه، وليس كما يبدو أريد أن أفكر كما يحلو لي انا أن أفكر. لم تعد لدي ثمة قيم ولا قواعد ولا مثل سوى تلك التي أشعر بها أنا. تلك هي حريتي، هي في عناقي لوجودي، وفي التصاقي بوجودي.. هي في «موت الآخرين» بالنسبة لي!

وأنا... في فجر هذا اليوم اتمطى حرية، استنشق حرية اتمرغ حرية، فما من انسان يملكني ولا من فكرة تقيدني، ولا من وجود يؤرقني سوى وجودي.

لقد نطقت منذ لحظة بأول حوار ناطق بيني وبين كمال، إنها المرة الأولى التي لم يكن فيها حوارنا أخرس، لأنني لفظت كلمة «الوداع» لوحدي بمحض إرادتي، بمفردي بإحساسي.. وحسب.

مؤلفات الكاتبة الروائية السيدة ليلى عسيران

- لن نموت غداً
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- عصافير الفجر
- خط الافعى
- قلعة الاسطه
- جسر الحجر
- الاستراحة